موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

٢

الفكر الإسلامي

منابعه وآثاره

« مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية »

MUSLIM THOUGHT

Its Origin and Achievements

تأليف

M. M. SHARIF

ترجمه ، وعلّق عليه ، وأضاف إليه

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة (١٩٨٦) مع كثير من التنقيحات والزيادات

ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

كتب للمؤلف

أولا — موسوعة التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله ، من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى .

الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

١ — مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الإسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ عام ؟ . . : فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى — علم التاريخ بين المسيحية والإسلام . . . . .

— تاريخ العرب قبل الإسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية :

— السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تُدَوَّن لأول مرة . .

— الدعوة الإسلاميه وفلسفتها — عصر الخلفاء الراسدين .

٢ — الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ — الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول، وبدَوْر المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية .

٤ — الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

— الأندلس الإسلامية ، وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريقها .

— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر)

— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ — الجزء الخامس : (الطبعة السابعة)

— مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .

(تدوين جديد لتاريخ مصر وعرضٌ لأهم آثارها)

— الحروب الصليبية : دوافعها — أدوارها — نتائجها .

— الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الإسلام :

مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .

— الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربى :

غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الإسلامية الحاليه :

موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية ، والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :

المملكة العربية السعوديه — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عُمان — دولة الإمارات العربية المتحدة — قطر — البحرين — الكويت .

— العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى الآن :

— إيران — أفغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — بروناى

— الأقليات الإسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيلبين . . .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الرابعة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم: عصر محمد نجيب — عصر جمال عبد الناصر

١٠— الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم ، عصر أنور السادات .

(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات) .

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الإسلام لهداية البشرية فى شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد، وفى مجال الحياة الاجتماعية، والتربوية، والعسكرية، والتشريعية، والقضائية، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ، وأجزاؤها هى :

١١– الجزء الأول : تاريخ المناهج الإسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم فى صدر الإسلام – انحرافاتها فى عصور الظلام – وجوب تصحيحها:

١٢– الجزء الثانى : { الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره
مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبعة السابعة)

١٣– الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

فى الفكر الإسلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤– الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السابعة)

فى الفكر الإسلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ – الإسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .

٢ – مبادىء الإسلام الاقتصادية .

٣ – الإسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (الإيداع بالبنوك، شهادات الاستثمار...):

٤ – من تاريخ الاقتصاد فى الإسلام (بيت المال : موارده ومصارفه . . .) .

٥ – النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها .

١٥– الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها – تاريخها – فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ، وتوجيههم حسب مواهبهم . .

١٦– الجزء السادس : المجتمع الإسلامى (الطبعة السابعة)

أسس تكوينه ، أسباب ضعفه ، وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة ، تخطيط جديد ، مادة علمية جديدة ، أداء جديد .

١٧– الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

فى الفكر الإسلامى

- فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة . . .
- وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء . . .

١٨– الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامى (الطبعة الرابعة)

وتاريخ النظم القضائية فى الإسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع ، ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى .

١٩– الجزء التاسع : الإسلام والعلاقات الدولية (الطبعة الرابعة)

دراسات علمية توضح النهج الإسلامى فى العلاقات بين الدول الإسلامية والدول غير الإسلامية ، فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

٢٠– الجزء العاشر : رحلة حيـــاة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية .

كتب للمؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ـ الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة التاسعة)

ـ دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود فى التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن: الصهيونية ،أنبياء بنى إسرائيل،عقيدة بنى إسرائيل ، يهوه إله بنى إسرائيل، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين . .

ـ مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم، التلمود، بروتوكولات حكماء صهيون .

ـ اليهود فى الظلام : الماسونية، والروتارى، الاغتيال، التجسس، البابيه والبهائية .

ـ من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ـ الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

ـ المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

ـ بولس واضع المسيحية الحالية،التثليث،صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

ـ شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، حراسة ظهور العذراءفى كنيسةالزيتون والمعادى ،حركة الإصلاح الدينى ونتائجهاونقدها .

٢٣ـ الجزء الثالث : الإسلام : (الطبعة التاسعة)

ـ الله فى التفكير الإسلامى ، النبوة فى التفكير الإسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، الدين المعاملة، المرأة فى الإسلام، الرق وموقف الإسلام منه، السياسة والاقتصاد فى الإسلام.آراءالمفكرين الغربيين فى الإسلام ورسول الإسلام.

٢٤ـ الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية ـ الجينية ـ البوذية »

ـ تقديم عن : جغرافيةالهند ، سكان الهند ،اللغات فى الهند ،الأديان فى الهند .

ـ دراسة الكتب المقدسة الهندوسية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتا .

ـ أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا، وحدة الوجود .

ـ تاريخ الهندوسيه والجينية والبودية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥– كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة الثامنة عشرة - مع ثلاثة ملاحق مهمة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

٢٦ – الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام ، وامتداداتها حتى الآن .

كتابان باللغة الإنجليزية هما :

رقم	Title	الناشر
٢٧ –	IsLAM : Belief Legislation - Morals	مكتبة النهضة المصرية
٢٨ –	History of Muslım Educatiom	

وكتب باللغة الإندونيسية والمالزية :

رقم	Title		الناشر
٢٩ –	Negara dan Pemerintahan Dalam Islam		Pustahm National (Singapore)
٣٠ –	Masjarakat Islam		
٣١ –	Hukum Islam		
٣٢ –	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	I	
٣٣ –	Sedjarah dan Kepudajaan Islam	II	
٣٤ –	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	III	
٣٥ –	Perbandingan Agama (Jahudı)		
٣٦ –	Perbandingan Agama (Masıhi)		
٣٧ –	Perbandingan Agama (Islam)		
٣٨ –	Perbandingan Agama (Agama 2 yang Terbesar di India: Hindu-Jaina-Buddha)		
٣٩ –	Sedjarah Pendidikan Islam		
٤٠ –	Poltik dam Ekonomi Dalan Islam		
٤١ –	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam		
٤٢ –	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi		
٤٣ –	Perang Salib		
٤٤ –	Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sed jarah		
٤٥ –	Pengajaian Al Quraan		
٤٦ –	sedjarah Kehakiman Dalam Islarm		

كتب للمؤلف

خامساً : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سِيَر عظماء الإسلام، ومن التاريخ، والحضارة، وقصص القرآن . .

للأولاد والشباب والسيدات والرجال، ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءاً) .

الطبعة الثالثة مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

ج ١ محمد قبل البعثة .

ج ٢ من غار حراء . . إلى غار ثور (قصه الإسلام فى مكه) .

ج ٣ الإسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها .

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة .

ج ٦ (ا) الرسول فى بيته: زوجات الرسول —أسباب تعدد الزوجات .

ج ٧ (ب) الرسول فى بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها — الحجاب — أولاد الرسول — أحفاده — خدمه

ج ٨ الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم— الرسول يربى المجتمع الإسلامى .

ج ٩ الرسول يربى القضاة، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام .

ج ١٠ : الرسول والشباب - الرسول والعمل .

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون .

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود .

ج ١٣ الإسلام والقتال، وهل انتشر الإسلام بالقوة أو بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها—أهم أحداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة أحد والهزيمة التى أعقبت المنتصر—غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى .

ج ١٥ صلح الحديبية—كتب الرسول للملوك والرؤساء—غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم :

ج ١٦ فتح مكة—غزوة حنين والطائف—غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول .

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها .
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة الإسلامية.
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته وأخلاقه والفتنة في عهده .
ج ٢٠ (٤) علي بن أبي طالب سخصيته وحياته والمشكلات التي واجهها .
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام .
ج ٢٢ (٧) سعد بن أبي وقاص . (٨) أبو عبيدة بن الجراح .
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمر .

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء) .

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي— نزول القرآن وتدوينه أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب في أدائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا والآخرة — إعجاز القرآن ومظاهر الإعجاز— معجزات الرسل في ميدان المقارنة .

ج ٢٦ عجز العرب والاعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الإعجاز في القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار في القرآن : أسراره وإعجازه .

ج ٣٤ ، ٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفي الطبعة الثانية إن شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم

جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق، وتصنيفها، وشرحها شرحاً ميسراً.

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن — قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزير — قصة أيوب عليه السلام .
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة إسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عايه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج إلى إنصاف : (٥ أجزاء)

ح ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف فى تدوينه ومحاولة إنصافه — معاوية الخليفة الأموى الأول : عام الجماعة — الدهـاء — الإصلاحات الداخلية — التوسـع .

ج ٣٨ عبد الملك بن مروان :
أحد فقهـاء المدينة الأربعـة .
البطوله — السياسة — الإصلاحات الداخاية — التوسع

ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران : الوليد بن عبد الملك
عمر بن عبد العزيز

ج ٣٩ التوسع العظيم فى العهد الأموى وأهم ميادينه .

ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع — قصة استشهاد الإمام الحسين .

ج ٤١ جزء عن : « من شهداء الإسلام » : حمزة بن عبد المطلب — جعفر بن أبى طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار .

ج ٤٢ جزء عن شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

المجموعة السادسة : الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام وامتداداتها حتى الآن :

ج ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ من غزوة مؤتة إلى الحرب فى لبنان والحرب بين العراق وإيران (٣ أجزاء فى مجلد واحد) .

المجموعة السابعة : الإسلام والمرأة (٦ أجزاء) .

ج ٤٦ المرأة قبل الإسلام فى الحضارات المختلفة — ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟

ج ٤٧ المرأة العربية من الجاهلية للإسلام : الخنسـاء .

ج ٤٨ سيدات من بيت النبوة : السيدة زينب بنت الإمام عـلى .
بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .

ج ٤٩ سيدات فى البلاط العباسى : الخيزران — زبيدة — بوران .

ج ٥٠ سيدات فى قصور مصر : قطر الندى — ست الملك — شجرة الدر .

ج ٥١ سيدات فى قصور الأندلس وإماء برعن فى الشعر والغنـاء .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعاً إن شاء الله)

(لم تدخل أعداد المكتبة الإسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

كتب المؤلف

سادساً : تعليم اللغة العربية لغير العرب
وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغه العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسله من نوعها فى المكتبة العربيه تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغه العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسله الكتابين التاليين :

٤٧— تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى · مرحله الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالإملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب إلى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الإسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية تم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٨— قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة .
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعاد طبعها

٤٩ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٥٠ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥١ — الحكومة والدولة فى الإسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥٢ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٣ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

٥٤ — الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى .
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

مقدمة المؤلف

طالما سألنى بعض الأصدقاء عما إذا كان هناك ما يمكن أن يسمى « الفكر الإسلامى » وللإجابة عن هذا السؤال كان لابد من مراجعة عدد كبير من المراجع لنستمد منها تفاصيل هذه الإجابة ، وفى هذا الكتاب أقدم نتيجة هذا الجهد ، لعلى به أوضح هذا المقصد النبيل ، وأسهم فى إزالة الجهل بالفكر الإسلامى الذى كان له أروع نصيب فى ترقية الفكر العالمى .

وكنت قد ألقيت بعض أبحاث هذا الكتاب فى المؤتمر الهندى العشرين للدراسات الفلسفية الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، والذى كنت رئيسه العام ، وقد نشرت هذه الأبحاث بعد تنقيح واسع فى (The Aryan Path) وإنى مدين بالشكر لسكرتير المؤتمر وللناشر ، لإذنهما فى ضم هذه الفصول إلى هذا الكتاب على النحو الذى انتهت إليه بعد ما أحدثاه فيها من تنقيح وتهذيب .

وهذا الكتاب يحوى حديثاً قصيراً عن بعض مشاهير المفكرين المسلمين وعن أحسن ما كتبوه فى الفلسفة والعلوم ، ثم عن خير المناهج التى رسموها لأنفسهم ، وقد عقدت العزم على أن أجعل هذا الكتاب صغير الحجم سهل التداول ، ومن أجل هذا أخذت نفسى ألا أتحدث عن جماعات أخرى كثيرة من الفلاسفة والكتاب المسلمين ، وعما كتبوه ، حتى لا أخرج عن الهدف الأساسى الذى وضعته وارتسمته .

وأنا مدين فى هذا العمل إلى المستشرقين والكتاب الذين سبقونى فى الكتابة عن التاريخ الإسلامى الوسيط وعن الفلسفة والفلاسفة المسلمين ، ومن هؤلاء :

جورجى زيدان

Goldziher

Philip Hitti

O,Leary

Macdonald

Renan

M, De wuif

ولا أدّعى أنى جئت فى هذا الكتاب بما لم أسبق به ، وإن كنت أتحمل أنا تبعات ما قد يكون فيه من أخطاء ، وكل ما أدّعيه أنى بذلت الجهد لأحقق رغبة ملحة ، وآمل أن أكون قد وفقت إلى أن أوضح بعض الأفكار التى كانت لا تزال غامضة ، وغير ناضجة .

وشكراً لزملائى وتلاميذى الذين اعتمدت عليهم فى تصحيح تجارب المطبعة .

لندن فى سنة ١٩٥١ .

المؤلف

مقدمة المترجم

هذا الكتاب صغير فى حجمه ولكنه كبير فيما حمل من أفكار ، فقد حشد فيه المؤلف ألواناً من الفكر الإسلامى فى ميادينه المختلفة بإيجاز غير مخل ، فملأ به فراغاً ملحوظاً فى الدراسات الإسلامية .

وكثيراً ما تحفل اللغات الأجنبية بأبحاث ذات قيمة عن أفانين من الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ونحن معشر الكتاب العرب نحاول أن نغنى لغتنا عن طريق الاستفادة بهذه الأبحاث ، وهناك طريقان للحصول على هذه الاستفادة .

الطريق الأول هو ترجمة هذه الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية .

والطريق الثانى هو الاقتباس من تلك الكتب فى مجال التأليف .

ولكل من هذين الطريقتين هواة ودارسون ، وكلاهما كبير القيمة فى الدراسات العلمية ، ومع هذا فأنا أميل للطريق الثانى لأنى أحب أن أضع بنفسى الخطة لفكرة معينة، واقرأ لها ما استطعت، وأسكبها بقلمى، وأستفيد فى خلال هذه الجولة الطويلة بما أستطيع قراءته من أبحاث ومؤلفات، ولا أذكر أنى اتجهت للترجمة الكاملة ، لأنى لاأحب أن أصبّ نفسى فى قالب رسمه سواى ، ولأنى — من جهة أخرى — شغلت نفسى أو شغلتنى ظروف دراساتى بسلاسل من الأبحاث إحداها عن « التاريخ الإسلامى » والثانية عن « الحضارة الإسلامية » والثالثة عن « مقارنة الأديان » فلم يترك لى هذا المنهج فرصة لترجمة ما يكتبه الآخرون .

ثم التقيت بهذا الكتاب « الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره » وقرأته ، فوجدت من الضرورى أن أتخلى عن اتجاهى السابق ، وأن أقوم بترجمته . لأنه عميق الصلة بموسوعة الحضارة ، فهو جولة دقيقة فى منابع الفكر الإسلامى . ووسائل نشره ، ونماذج طيبه منه ، فكانت هذه نقطة التقاء مهمة بين أبحاثى وبين هذا الكتاب الماثل بين يدى القارىء ، ووضح لى أن من الخير أن أستفيد به كله ، وبالجهد الكبير الذى بُذِلَ فيه ، وإمعاناً فى عمق الصلة بين هذا الكتاب وبين موسوعة الحضـــارة الإسلامية التى كتبتها فى عشرة أجزاء جعلت هذه الترجمة تمثل جزءاً من أجزاء هذه الموسوعة .

وقد كتبت للمؤلف والناشر استأذن فى الترجمة وسرعان ما استجابا مشكورين فأذنا لى بذلك ، وإنه ليسرنى أن أقدمه للمكتبة العربية راجياً أن أكون به قد أضفت لبنة فى صرح الحضارة الإسلامية ، وأسهمت فى إبراز معالم تاريخنا المجيد .

وقد أعيد طبع هذا الكتاب عدة مرات ، وفى خلال هذه المدة قابلت أفكارا متعددة ترتبط بالموضوعات التى وردت بهذا الكتاب ، وقد أضفت هذه الأفكار للترجمة حتى أصبح الكتاب مزيجاً من الترجمة والتأليف ، ولا مانع من ذلك فالهدف هو خدمة العلم بوجه عام والحضارة الإسلامية بوجه خاص .

والله الموفقُ والهادى للصوابُ

دكتور أحمد شلبى

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٦

الباب الأول

منابع الفكر الإسلامي

تقـــديم :

خطت الأفكار الفلسفية خطواتها الأولى فى العالم منذ أوائل القرن السادس قبل الميلاد ، وكانت هناك مراكز أربعة ترعرعت فيها هذه الأفكار الفلسفية ، وكانت تلك المراكز تمثّل العالم المتمدين آنذاك ، وهى الهند والصين وفارس واليونان .

ولم تكن هذه المراكز متماثلة القوة ، بل امتاز منها منبعان هامان هما الهند واليونان (١) ، فقد تطورت فيها هذه الدراسات حتى أصبحت — بعد

---

(١) هناك مكان لم يذكره المؤلف وهو يعدّ فى الحقيقه مهد الحضارة الأولى، فقد نبتت فيه مدنية الجنس البشرى ، وترعرعت حتى وصلت إلى مدى عظيم ، وكان منبعاً تتلمذ عليه الفكر اليونانى واقتبس منه دعائمه، وذلك المكان هو مصر كما ذكرنا فى الجزء الأول من موسوعة الحضارة الإسلامية ولنقتبس فيما يلى كلمات عالم متخصص فى هذا المجال هو الدكتور عبد المنعم أبو بكر الذى يقـــول فى بحث نشر بصحيفة الأهـــرام يوم ١٧-٦-١٩٧١ :

على هذا المسرح العظيم الممتد على ضفاف النهر . نشأ التاريخ كما نشأت الزراعة والتجارة ، وعرف استئناس الحيوان، وكُتبت خطابات الاعتماد ، وارتقت الصناعات والحرف وأقيمت الحكومات والشرائع ، وعرفت حروف الهجاء ، واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب ، وشيدت المدارس ، وظهرت علوم الرياضة والطب والهندسة ، والفلك ، وصورت دائرة البروج السماويه ، وعرفت الحقن الشرجية ، وطرق صرف المياه ، وصنع الخزف المطلى والأثاث الدقيق ، واستخدمت العطور ومساحيق التجميل .

. . . وقصارى القول إن مصر هى أم الحضارة وإنه ما من شىء ننعم به الآن إلا كان للمصريين فضل أول فى ابتكاره . . . ولم يبتدع اليونان إذن أسس الحضارة الإنسانية . =

الناحية الجغرافية ، أقرب إلى العالم الإسلامى ، ومن هنا كان نصيب أوربا من ثقافة المسلمين عميقاً وشاملا .

تصوير سريع للحياة الإسلامية

الإسلام وزحفه الواسع السريع :

ويتضح من ذلك أن من الضرورى أن نخصص مساحة— ولو صغيرة — للحديث عن الإسلام ودوره الفكرى فى العالم ، وقد بزغت شمس الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى ، فكان نبعاً جديداً من منابع الفكر ، انبثق من قلب الجزيرة العربية ، وسرعان ما تضخم هذا النبع حتى أصبح بحراً فياضاً بالقوة والحياة ، وأمدّ الإسلام الإنسانية بروح جديد لم يعرف التاريخ له مثيلا ، وقد حاولت فارس والروم أعظم إمبراطوريتين فى تلك الأيام أن توقفا مَدّه الزاحف ، ولكنهما لم تصمدا فى النضال طويلا ، واكتسحهما تيار الإسلام ؛ ولم يمض قرن واحد على وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى كان الإسلام قد امتد من المحيط الأطلسى فى الغرب إلى الهند وحدود الصين فى الشرق ، ومن بحر خوارزم فى الشمال إلى أعالى شلالات النيل فى الجنوب ، وذلك يعدل أكثر من نصف العالم المعروف حينئذ ، فأصبح الإسلام يسوس إمبراطورية أعظم من الإمبراطورية الرومانية أيام كانت فى أوج عظمتها ، وقد حافظت هذه الإمبراطورية الضخمة على مكانتها على الرغم من كثرة الاضطرابات ومن عوامل الانحلال والحروب التى أصابتها من حين لآخر .

صُوَر من المدنية الإسلامية :

ومما تفخر به هذه الإمبراطورية أن كان لها لغة واحدة هى اللغة العربية

يتحدث بها هؤلاء الملايين من المسلمين ، وكان بها عدد كبير من المدن الآهلة بالسكان الذين يصل عددهم فى بعض المدن إلى بضعة ملايين من الأشخاص ، وكثيرون منهم كانوا يقطنون قصوراً جميلة ذات أثاث ثمين ورسوم فنية وستائر رائعة ، وقد تدلت من سقوفها ثريات بديعة ، وأحاطت بالبناء حدائق فاتنة بها أروع وأجمل الرياحين .

وفى المدن الإسلامية كانت تنتشر آلاف الحمامات العامة ، كما كانت تضاء شوارعها وأزقتها فى المساء بالمصابيح ، وقد بدت أكثر طرقاتها ممهدة .

الأسطول الإسلامى :

وكانت الإمبراطورية الإســلامية فى العصور الوسطى تملك أكبر أسطول عرفه التاريخ حتى ذلك الحين ، فكان يسيطر على المحيط الأطلسى من ساحل أسبانيا شمالا حتى غرب إفريقية جنوباً ، كما كانت له السيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، والمحيط الهندى ، وبحر الصين ، والمحيط الهادى .

وكان الأسطول الإسلامى التجارى يقوم برحلات شهرية تجارية يسير فيها عبر المحيط الأطلسى حتى المحيط الهادى ، ويرسو من حين لآخر على أهم الموانىء الممتدة على طول الطريق ومنها الموانىء الهندية .

صناعات :

وفى العالم الإسلامى الوسيط قامت صناعات ذات بال ، وقد حذق المسلمون إجادة كثير من المنتجات ، فمنتجات الجلود والمنتجات المعدنية ،

والسجاجيد ، والآجر ، والفخار ، والروائح العطرية ، والورق ، والزجاج والحلى ، والمنسوجات القطنية والحريرية والصوفية .

أوربا تقتبس الصناعات الإسلامية :

وقد نالت هذه الصناعات وبخاصة المنسوجات إعجاب الشرق والغرب على السواء ، وكانت المصانع الإسلامية منتشرة فى العالم الإسلامى من بلاد الفرس إلى شواطىء الدانوب ، وجنوباً حتى مرتفعات مصر العليا ، وقد استعارت أوربا بعض الأسماء العربية الخاصة بالجلود والمنسوجات القطنية والحريرية وأطلقتها مع قليل من التحريف على مصنوعات مشابهة،ومن تلك الأسماء : .

Cordovan : جلد وقد جاء فى Oxferd Dictionary فى تفسير هذه الكلمة ما يلى : جلد منسوب إلى Cordova (قرطبة) لشهرتها فى صناعة الجلود فى العصود الوسطى .

Morocco : جلد لين مأخوذة من Morocco أى مراكش .

Muslin : نسبة إلى الموصل وتطلق فى اللاتينية على نوع رقيق من القماش .

Cotton : وأخذت لفظ Cotton بذاتها لتؤدى نفس المعنى .

Domask : قماش مشجر نسبة إلى دمشق .

Fustat : قماش منسوب إلى الفسطاط .

Taffeta : نوع رقيق ناعم من القماش منسوب إلى تفتا (مدينة فارسية)

والنيل إلى أمكنة مختلفة بعيدة عن المجرى الأصلى لهذه الأنهار . وعرفت أوربا عن المسلمين أنواع التوابل والبهار والطيب والروائح والزنجبيل والسكر والبن ، كما أخذت عنهم نظمهم الإدارية ، وطرق حياتهم المنزلية ، ووسائل الزراعة ، وطرق الرى ، وفن البناء ، وعلم الخط ، والموسيقى ، وكثيراً من الملابس والطعام والألعاب الرياضية .

وقد تم هذا للمسلمين قبل أن تقع عين كولومبس على شواطىء أمريكا بعدة قرون ، وقبل أن يستطيع فاسكودى جاما أن يصل إلى الأرض التى حلم بها كولومبس بقرون عديدة ، وقد كان لهذا الأخير مرشد عربى اسمه « أحمد » كانت له خبرة بالبحار ، فاستطاع بمهارته أن يقود الرحالة الأوربى إلى الدنيا الجديدة .

مقارنة :

وقد كانت حياة المسلمين فى المستوى الذى سبق إجماله « فى حين لم تحظ شوارع لندن بمصباح واحد فيها ، ولم تمهد شوارع باريس إلا بعد ذلك بعدة قرون » « وبينما كانت حياة المسلمين على هذا الوصف كان أمراء الألمان والفرنسيين والإنجليز يعيشون فى مساكن يندر أن تُنفصَل فيها حظائر الماشية عن مساكن الناس ولم يكن بها مداخن ولا نوافذ ، بل كانوا يعملون ثقباً لينفذ منه الدخان إلى الخارج (١) » وكان القسس فى أوربا يعدون من الفضائل إلا يستحم الإنسان ولا يغير ملابسه عدة شهور .

---

(١) ما بين قوسين اقتبسه المؤلف من مصدر لم يعينه .

١ – المصادر الإسلامية الأصيلة

وهناك حقيقة هامة تغافل عنها أو لم يفطن لها الكتاب المسيحيون الذين كتبوا عن تاريخ الحضارة الإسلامية ، وهذه الحقيقة هى أن القوة الدافعة التى جعلت المسلمين يهتمون بالعلم مصدرها القرآن الكريم وأحاديث الرسول .

ولنطف طوفة سريعة بين آيات القرآن الكريم لنرى صوراً مما احتواه متصلا بهذا الموضوع ، ونبدأ بأن نسوق الآيات التى بدأ بها نزول الوحى ، والتى هى أول آيات نزلت من القرآن ، ثم نستمر فى ذكر آيات أخرى تحمل نفس المعنى من الذكر الحكيم ، قال تعالى :

– اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم (١) .

– وقل ربِّ زدنى علماً (٢) .

– هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٣) :

– ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون (٤) .

---

(١) سورة العلق الآيات ١ – ١٥ .
(٢) سورة طه الآية ١١٤ .
(٣) سورة الزمر الآية التاسعة .
(٤) سورة الأعراف الآيه ١٧٩ .

— وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبيِّنه لقوم يعلمون (١)

— يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يُؤْت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب (٢) .

— وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ؛ قالوا : أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه . ولم يؤت سعة من المال ، قال : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم (٣) .

وفى القرآن الكريم ما يدل على أن بالعلم يفضل الإنسان الملائكة ويكون خليفة الله فى الأرض (٤) .

وقد قرر Deutsch أن القرآن كان عاملا هاماً فى رفع مستوى المسلمين وتوجيههم إلى دراسة العلم وخدمة الفكر ، وهاك ما قاله : « لقد كان القرآن هو الحافز الذى دفع المسلمين إلى أوربا ليكونوا بها سادة وملوكاً ، وليرفعوا منار الإنسانية فى وقت كان الظلام مسيطراً فى كل اتجاه ، وبدافع القرآن رفع المسلمون لواء الحكمة ، وخدموا العلم والمعرفة ، وأحيوا علوم السابقين ، وعلَّموا الفلسفة والطب والفلك ، وفن البناء فى أسمى صورة ،

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٨ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٤٧ .

(٤) اقرأ قوله تعالى . وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس (سورة البقرة الآية ٣٠ وما بعدها)

بالغرب والشرق على السواء ، مما أتاح لنا أن نصل إلى النهضة العلمية الحديثة . ولهذا يجدر بنا ألا نكف عن البكاء كلما تذكرنا اليوم الذى سقطت فيه غرناطة » .

فإذا وصلنا إلى أحاديث الرسول فى هذا الشأن وجدنا ذخيرة واسعة نسوق منها الأمثلة الآتية :

— أول ما خلق الله العقل ، ولم يخلق أفضل منه .

— من غادر أهله فى طلب العلم فهو سائر فى سبيل الله .

— طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

— العلم يمكّن صاحبه أن يفرّق بين الحق والباطل ، ويقوده إلى الطريق المستقيم ، وهو صديق الضارب فى البيداء ، وأمان فى الوحدة ، ورفيق من لا رفيق له ، ورائد إلى الخير ، وسند فى الضراء .

— العلم زينة أمام الأصدقاء ، وسلاح أمام الأعداء .

— اطلب العلم من المهد إلى اللحد .

— اطلب العلم ؛ فطلب العلم جهاد فى سبيل الله ، والحديث به ثناء على الله . والسعى لتحصيله عبادة ، وتعليمه زكاة .

— ترفرف الملائكة بأجنحتها فوق طالب العلم .

— من عظّم العالِم فقد عظمنى .

وهناك بعض أحاديث يقارن فيها الرسول صلى الله عليه وسلم العلم من جانب بالعبادة والشهادة من جانب آخر ، ومنها نسوق ما يلى :

٢ ــ شعوب ذات ثقافة

انتشر بينها الإسلام

تكلمنا فيما سبق عن التغيير العظيم الذى أحدثته المصادر الإسلامية الأصلية فى الإنسان المسلم أو بالتالى فى الدراسات، ونتجه هنا للحديث عن أثر آخر فإن هناك مصادر أخرى للفكر اغترف منها المسلمون ، وكانت مراكزها فى سوريا ومصر وفارس ، ذلك أن الفلسفة اليونانية التى اتخذت جذورها من الشرق عادت قبل ظهور الإسلام إلى الإسكندرية (١) ومنها خطت إلى سوريا ، وجاءت الأفلاطونية الحديثة التى ألفها

---

(١) انقض الإسكندر المقدونى على بلاد اليونان فأخضعها لسيادته ، ثم زحف على الشرق ففتح مصر والشام والعراق وفارس وأسس مدينة الإسكندرية ، ثم ظهرت مدرسة الإسكندرية التى التقت فيها علوم هذه البلاد جميعاً وبخاصة علوم اليونان ، ولعل السبب الذى حدا بالإسكندر أن يختار الإسكندرية هو موقعها بين الشرق والغرب ، وقد صحت هذه النظرية ، فإن الإسكندرية أصبحت حلقة اتصال بين الطرفين ، وامتزجت فى مدرستها الآراء والمذاهب . ويقول Guge : تقابل الشرق والغرب فى شوارع الإسكندرية . وفى قاعات الدرس بها ، وفى معابدها ، وفيها اصطبغت اليهودية أولا ثم المسيحية ثانياً بالصبغة اليونانية (قصة الفلسفة اليونانية ص ٢٣٨) ويمكن أن نضيف إلى ما قاله Guge ، أنه عن طريق مدرسة الاسكندرية ظهرت آثار الفلسفة اليونانية فى فلسفة المسلمين ، كما ظهرت فى أقوال كثير من زعماء الفرق الإسلامية وبخاصة المعتزلة . « المترجم »

أفلوطين (١) (٢٦٩ م) plotinos وامتزجت بعناصر فلسفة أرسطو عن طريق فورفوريوس propyry وكان هذا يعلم فى روما حوالى نهاية القرن الثالث الميلادى. فانتقلت أفكاره إلى الإسكندرية بواسطة كليمنت وأوريجين (Clement and Origen) اللذين كانا يحاولان مزج الفلسفة المعاصرة بالنظريات المسيحية ، ولكن سرعان ما قامت المكائد والمؤمرات التى اضطرت Origen إلى مغادرة الإسكندرية قاصداً فلسطين حيث أنشأ فى « قيسارية » مدرسة على غرار مدرسة الإسكندرية ، وبعد ذلك بفترة وجيزة أسس Malchion فى أنطاكية مدرسة على نفس الطراز ، وبعد حوالى خمسين عاماً أسست مدرسة مشابهة فى نصيبين بين الجماعات التى تتكلم بالسريانية ، ولكن هذه المدرسة تحولت بعد مدة إلى الرها ، ثم فى منتصف القرن الخامس الميلادى عادت مرة أخرى إلى نصيبين .

وبهذا كثرت فى الشرق المدارس التى تعلمّ فيها مختلف الثقافات الفلسفية

---

(١) الأفلاطونية الحديثة the New – Platonism تنسب إلى أفلوطين الذى ولد سنة ٢٠٥ م فى ليكوبوليس (أسيوط) والذى لاتعرف جنسيته بالضبط ، أما واضع هذا المذهب فهو فى الحقيقة أمونيوس سكاس Ammonius saccas الذى مات سنة ٢٤٢ م ، وكان أفلوطين من أكبر تلامذته فنسب له هذا المذهب ، وهذه الفلسفة اسكندرانية فيها طابع الشرق وأحلامه ، ويطلق عليها العرب (مذهب الاسكندرانيين) ، وفى سنة ٢٤٥ قصد أفلوطين إلى روما واستقر بها . وأسس مدرسته التى قام عليها حتى مات سنة ٢٦٩أو ٢٧٠،ومن أشهر تلامذته فورفوريوس وكانت له معرفة بمذهب أفلاطون بالإضافة إلى الأفلاطونية الحديثة ، وقد صحب فورفوريوس أستاذه فى روما . ثم انتقل إلى الاسكندرية ليساعد بعض المسيحين الذين أرادوا أن يوفقوا بين فلسفة الأفلاطونية الحديثة وبين الدين المسيحى ،ولكن هذه المحاولة اضطُهدت من أغلب المسيحين الذين كانوا يرون فى الأفلاطونية الحديثة روحا وثنية ، لا يمكن التوفيق بينها وبين الأديان السماوية . « المترجم »

المذاهب التي تتحدث عن طبيعة المسيح (*)

وفى هذا العصر المسيحى ظهرت المذاهب التى تتحدث عن طبيعة المسيح ، وشغلت هذه المذاهب فلاسفة العصر ومدارس العصر التى ذكرناها ، وأهم هذه المدارس فى الشرق هى :

(١) النساطرة .

٢ — اليعاقبة .

٣ — الملكانية .

وسنتحدث فيما يلى عن كل من هذه المذاهب .

النساطرة :

والنساطرة تتبع مذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية (٤٢٨ — ٤٣٠ الذى حرمه المجمع المسكونى سنة ٤٣١) وقد اعترض هذا على تسمية مريم العذراء «والدة الإله» وقرر أن للمسيح خصائص الإنسان فى الوجود والإرادة والفعل وأن اتحاده مع الذات الإلهية لم يبدأ إلا بعد ولادته ، وعلى هذا لم تلد العذراء إلهاً وإنما ولدت إنساناً لأن المخلوق لا يلد الخالق ثم اتحد بعد ذلك مع الذات الإلهية ، فأصبحت له طبيعة واحدة ومشيئة واحدة .

وقد تبنّت كنيسة انطاكية مذهب نسطوريوس. ثم تخلت عنه وارتبطت به حتى الآن كنيسة فارس فأصبحت تدعى الكنيسة النسطورية ، ويكثر أتباعها فى العراق وإيران والهند .

والنساطرة كانوا فى الأصل ضمن أتباع الكنيسة الأرثوذكية ولكنهم

(*) هذا الموضوع من إضافات المترجم .

باتجاهاتهم تلك انحرفوا عنها فقررت الكنيسة الأرثوذكية اعتبارهم ضالين وألف هؤلاء كنيسة خاصة بهم سميت كنيسة النساطرة .

اليعـــاقبة :

عاش اليعاقبة فى مصر والنوبة والحبشة ، ويدور مذهبهم على القول بأن المسيح هو الله والإنسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح ، وأن الكلمة (أى الله) انقلبت لحما ودما فصار الإله هو المسيح ، فاللاهوت ظهر فى الناسوت ، وصار هو هو ، فالمسيح جوهر من جوهرين ، أو طبيعة واحدة من طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى إنسانية،ولكنهما تركّبتا كما تركّبت النفس والبدن ، فالعذراء هى والدة الإله ، وقد أعلن هذا المذهب فى مجمع إفسس بالأناضول سنة ٤٣١ .

وينسب اليعاقبة إلى يعقوب البردعى أسقف الرها أحد تلاميذ ديسقوروس .

الملكانية أو الملكيون :

طائفة مسيحية منتشرة فى سورية ومصر وفلسطين يتحدثون العربية غالباً ، سموا الملكيين لأنهم أيدوا القرار الذى ارتضاه الملك مرقيانوس الذى عضد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ وكان هذا المجمع قد ناهض القول بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وقال إن للمسيح طبيعتين ومشيئتين أى له ذاتان وكيانان هما الإله والإنسان ، وأن مريم ولدت الاثنين جميعاً .

وبعض الملكانية كاثوليك ولذلك يسمون الروم الكاثوليك ، وبعضهم أرثوذكس ويسمون الروم الأرثوذكس .

* * *

الترجمة من اليونانية وأثرها فى الفكر الدينى والعلمى :

والآن نستطيع أن نقرر أن الحقبة بين ظهور الفرق المسيحية وبين فتح المسلمين لسوريا ، كانت غنية بالترجمة من اليونانية إلى السريانية ، وغنية كذلك بالتعليقات والشروح ، ومرجع ذلك أن الفرق المسيحية كانت تتلمس فى الفلسفة اليونانية عوناً لها فى شرح وتأييد معتقداتها ، ولكن يجدر بنا أن نقرر كذلك أن معظم النشاط فى الترجمة كان منصباً على علم اللاهوت والدراسات الدينية ، ولم تنل العلوم الأخرى ما تستحقه من عناية إذ كان الاهتمام بهذه العلوم محدوداً ، فلم تتطور ، ولم يسجل الباحثون فيها أى كشف يذكر .

وعلى كل حال فقد اهتمت مدرسة الأسكندرية — بجانب علم اللاهوت — بالطب وكانت تلقى فيه محاضرات وشروح لستة عشر كتاباً من كتب جالينوس ، وبجانب الطب اهتمت مدرسة الإسكندرية أكثر من غيرها بأبحاث فى الكيمياء والفلك ، حتى أنه لما جاء الفتح الإسلامى كانت الإسكندرية مشهورة باتجاهها العلمى فى دراستها .

مدارس للثقافات الهندية والفارسية واليونانية :

وفى منتصف القرن السادس الميلادى اعتنق المسيحية رجل مجوسى الأصل اسمه (Mar anpa) وأسس مدرسة فى المدائن على غرار مدرسة نصيبين ، وبعد ذلك بقليل أسس أنوشروان ملك الفرس مدرسة مجوسية فى جنديشابور ، وملك الفرس هذا هو الذى كان قبل ذلك وافق أن يستوطن بلاده الفلاسفة اليونانيون المبعدون عندما نفاهم جستنيان الامبراطور

البيزنطى وأغلق مدارسهم فى أثينا . وتمتاز هذه المؤسسة الجديدة التى رعاها ملك الفرس بأنها لم تَقْصِر عنايتها على الدراسات اليونانية والسريانية بل اتجهت أيضاً إلى فلسفة الهند وعلومها . فترجم منها قدر كبير إلى اللغة البهلوية ، وكان الطب اليونانى والطب الهندى يعلَّمان فى هذه المدرسة ويتطوران .

وإلى جانب هذا كان هناك مدرسة فى حران أنشئت منذ عهد الإسكندر واستمرت مدة طويلة مركزاً للدراسات اليونانية الوثنية والدراسة الأفلاطونية الجديدة كما كان يدرسها فورفوريوس ، وكانت هذه المدرسة إحدى الواحات التى احتمت بها علوم اليونان .

نشاط فكرى يهيء لاستقبال الإسلام :

وأصبحت بذلك الإسكندرية ونصيبين وقنسرين والمدائن وحران أرضاً خصبة كأنما كانت تعد لاستقبال الفكر الإسلامى الذى كان على وشك الظهور والانبثاق ، ولم تستطع هذه المدارس المتعددة طيلة مدة وجودها أن تنتج عدداً ذا بال من الفلاسفة أو العلماء ذوى المواهب الممتازة ، أو أن تنتج كتباً وأبحاثاً ذات قيمة خالدة ، وكل ما قدمته هذه المدارس للإنسانية هو أنها احتفظت ببيئة يدب فيها النشاط العقلى والفكرى ، فكانت هذه البيئة تربة خصبة تستطيع — إذا بذرت فيها البذور الصالحة — أن تنتج صفوة من الرجال والباحثين ، ثم جاء الإسلام فأمد هذه التربة الخصبة ببذور صالحة ، وغذتها روح الإسلام بينبوع لا ينضب من الفكر والمعرفة ، فظهر فى ذلك الجو المزدهر مجموعات من العلماء والفلاسفة الممتازين الذين لا يعدون بالعشرات ولكن بالمئات ويقول O,leary إن هذه المدارس قدمت التربة التى استطاع المسلمون عليها أن يثبتوا فلسفة وعلوماً دينية وطباً ورياضة وغيرها ، وأن يحملوا منها علوماً مزدهرة عميقة الجذور .

٣ ـ حركة الترجمة من اللغات الأجنبية

كانت النهضة الفكرية عند المسلمين – بجانب المنبعين السابقين – تعتمد إعتماداً ملحوظاً على نشاط واسع فى الترجمة من السنسكريتيّة والفهلوية والسريانية واليونانية ، ففى سنة ٧٦٢ م وضع المنصور – الخليفة العباسى الثانى – حجر الأساس لعاصمته الجديدة (بغداد) ، وجمع له صفوة من مختلف النواحى ، وشجع على ترجمة كتب العلوم والآداب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية ، فاستجاب كثير من العلماء والباحثين لهذه الرغبة ، ودفعهم التشجيع الأدبى والمادى للإجادة والإكثار ، وكان أغلب هؤلاء من اليهود أو المسيحيين أو من حديثى الدخول فى الإسلام ، ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع (٧٥٧ م) الذى كان مجوسياً ودخل الإسلام ، وأشهر ما ترجمه (كتاب كليلة ودمنة) ، وقد وضع الأصل بالسنسكريتية ، ثم ترجم إلى الفهلوية ، ومنها ترجمه ابن المقفع إلى العربية ، وكان المقصود من هذا الكتاب تعليم الآداب بواسطة أقاصيص على ألسنة الحيوانات ، وقد فقد الأصل السنسكريتى لهذا الكتاب ، كما فقدت ترجمته الفارسية ولم يبق من هذه الترجمة إلا أجزاء لا تزال موجودة فى البانشاتانترا (Thc banshatntra) والمهابهارتا (Maha Bharta) وقد حفظته اللغة العربية للفكر الإنسانى ومنها ترجم هذا الكتاب إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً وإلى كثير من اللغات الأخرى .

وهناك عالم آخر هو رحالة هندى ، وقد أدخل هذا إلى بغداد كتاباً هاماً فى علم الفلك إسمه سندهانتا (Sindhanta) وساعد فى ترجمته إلى اللغة العربية ، وكذلك فعل هذا الرحالة بالنسبةلكتاب آخر فى الرياضيات .

ومن مشاهير المترجمين : الطبيب النسطورى جورجيس بن بختيشوع (٧٧١ م) ، وكان المنصور قد استدعاه من جند يشابور ليكون طبيبه الخاص ثم اشتغل بالترجمة ، ومن المترجمين أيضاً بختيشوع بن جورجيس (٨٠١ م) وجبريل تلميذ بختيشوع (٨٠٩ م) وعيسى بن شاكر وقسطا بن لوقا (٩٢٣ م) ، والحجاج بن يوسف بن مطر (الذى عاش بين سنتى ٧٨٦ — ٨٣٣ م) وهو أول من ترجم كتاب العناصر لإقليدس كما أنه من أوائل من ترجموا كتاب المجسطى لبطليموس (وكان يحيى بن خالد البرمكى أول من ترجم هذا الكتاب للرشيد) ومن المترجمين أيضاً ثاوفيل ابن توما الذى ترجم بعضاً من إلياذة هوميروس ، وأبو يحيى بن البطريق (المتوفى بين ٧٩٦ ، ٨٠٦) الذى ترجم أكثر كتب جالينوس (٢٠٠ م) وكتب أبقراط (٤٣٦ ق م) ، كما قام بترجمة أخرى لكتاب المجسطى لبطليموس والعناصر لاقليدس ، وعلى كل حال فلم يكن بين هذه التراجم العربية التى ظهرت فى هذا الوقت المبكر ترجمة شاملة شافية .

بيت الحكمة :

وفى سنة ٨٣٢ م شيد الخليفة المأمون (١) ببغداد أول مجمع علمى (Academy) ومعه مرصد ومكتبة جامعة وهيئة للترجمة ، ويقول Hitti (٢) : إن هذا المعهد برهن على أنه أهم مجمع علمى شيد منذ إنشاء جامعة الإسكندرية فى النصف الأول من القرن الثالث ق . م ، وفى هذا المعهد ترجمت أمهات

---

(١) من المرجح أن بيت الحكمة أسسه هارون الرشيد وإن كان قد ازدهر فى عهد المأمون . انظر تاريخ التربية الإسلامية ص ١٦٩ وما بعدها للدكتور أحمد شلبى .

(٢) History of the Arabs p. 310

الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغات العربية ، وعين يحيى بن ماسويه (عاش بين سنتى ٧٧٧ ، ٨٥٧ م) لرئاسة هذا المجمع ، وهو طبيب نسطورى وتلميذ لبختيشوع ، ويعرف عنه أنه ترجم للرشيد عدداً من المخطوطات الطبية ، وقد ظل هذا المعهد يواصل نشاطه فى خدمة الترجمة حتى بعد انتهاء العصر العباسى الأول ، ويرى أكثر الباحثين أن صفوة ما قام به هذا المجمع من جهود علمية تمّ إبان كانت الرئاسة مسندة إلى حنين ابن إسحاق (٨٧٣ م) تلميذ يحيى بن ماسويه وحواريه ، وقد كان حنين ابن إسحاق فى بادىء الأمر تابعاً لابن ماسويه الطبيب ، فكان يساعده فى إعداد بعض الأدوية ، ثم كلفه أولاد موسى بن شاكر بأن يطوف بالبلاد التى تتكلم اليونانية ليجمع منها المخطوطات ذات القيمة العلمية الكبيرة لترجمتها ، ثم أسند له الإشراف على دار الحكمة وعلى هيئة الترجمة فيها ، وأخيراً عين طبيباً خاصاً للخليفة المتوكل .

وقد استطاع حنين — بمساعدة المترجمين فى بيت الحكمة — أن ينقل إلى اللغة العربية كتب إقليدس (حوالى ٣٠٠ ق م) وبعضاً من كتب جالينوس وأبقراط وأرشميدس وأبولونوس ، ونرجم لأفلاطون كتاب الجمهورية وكتاب السياسة وكتاب القوانين ، وترجم المقولات والطبيعيات والخلقيات وهى بعض مؤلفات أرسطو ، وشروح تامسطيوس Themistins على الكتاب الثلاثين فيما وراء الطبيعة ، والعهد القديم وكتاباً فى الطب ينسب إلى بولس الأجينى ، ونقل إسحاق بن حنين إلى اللغة العربية كتباً كثيرة منسوبة إلى أفلاطون ، وأرسطو ، وفورفوريوس ، والإسكندر الأفروديسى وغيرهم

وكتب أبو بشر بن يونس (٩٣٩ م) شروحاً وتعليقات على المقولات لأرسطو وإيساغوجى لفورفوريوس ، وبجانب هذا فقد أخرج ترجمة عربية

لكتاب الشعر لأرسطو كما ترجم شروح الأسكندر الأفروديسى على كتاب الكون والفساد وشروح ناسطيوس على الكتاب الثلاثين فيما بعد الطبيعة.

ومن بين صفوة المترجمين الذين كانوا يعملون فى بيت الحكمة حبيش ابن أخت حنين وعيسى بن يحي وموسى بن خالد .

وكما كان حنين على رأس المترجمين النساطرة فقد كان ثابت بن قرة (٩٠١ م) زعيما لجماعة الصابئة الذين كان مركزهم حران تلك المدينة ذات التاريخ الحافل فى خدمة العلم والتى أخذت شهرة خاصة فى الرقى بالدراسات الفلسفية والطبية ، وقد ترجم ثابت وتلاميذه أهم الكتب اليونانية فى الرياضة والفلك ، كما قام بإصلاح وتهذيب كثير من الترجمات التى تمت قبله ، وأصبح ثابت فيما بعد أعز صديق للخليفة العباسى المعتضد ، وواصل أولاد ثابت وأحفاده القيام بالأعمال العلمية التى كان ثابت يقوم بها . فقد حذا حذوه أبناوه إبراهيم وسنان وحفيداه ثابت وإبراهيم ، وابنان لأحفاده هما إسحاق وأبو الفرج .

وفى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى برز المترجمون اليعاقبة وكان أشهرهم يحي بن عدى (٩٧٤ م) وأبو على عيسى بن زرعة (١٠٠٨م) وقد أعاد يحي النظر فى الترجمات التى تمت قبله، فأصلح فيها وحققها كما قام بعدة ترجمات جديدة لبعض الكتب الهامة مثل المقولات والشعر وما بعد الطبيعة لأرسطو ، والقوانين لأفلاطون ، وشرح المقولات للاسكندر الأفروديسى وترجم ابن زرعة كتاب المقولات وكتاب التاريخ الطبيعى مع تعليق جون فيلو بون John philoponus (الذى يسميه العرب يحي النحوى)

ومن هذا يظهر أن حركة الترجمة إلى اللغة العربية كانت واسعة النطاق وشملت ما أنتجه الأقدمون من فلسفة وعلم ، ولم تمض ثمانون عاماً على

تأسيس بغداد حتى كان العرب يقرءون بلغتهم معظم ما كتبه أرسطو وما نسب إليه ، ككتاب علم المعادن واستخراجها ، والميكانيكا والإلهيات ، كما كان العرب يقرءون بلغتهم أكثر مؤلفات أفلاطون والأفلاطونية الحديثة ، وأهم ما كتبه أبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الكتّاب والشراح ولم يقفوا عند علوم اليونان بلى تجاوزوها إلى الترجمة من الفارسية والهندية ، وبينما كان المسلمون يعيشون فى هذه النهضة العلمية كانت علوم اليونان غير معروفة تقريباً للاوربيين ويقول Hitti (١) : إنه « بينما كان الرشيد والمأمون يخرجان كنوز الفلسفة اليونانية والفارسية كان معاصروهم فى الغرب من أمثال شارلمان وسادة مملكته يتعثرون فى كتابة أسمائهم » .

١

History of the Arabs p. 315 (1)

الباب الثاني

نشر العلوم والمعارف

مقـــدمة :

فى الباب السابق رأينا أن منابع الفكر الإسلامى كانت إما داخلية إسلامية ، أو خارجية مستمدة من ثقافة الآخرين ، ونقرر هنا أن ما إن حصل المسلمون على هذه الثقافات من هذا المنبع أو ذاك ، حتى أخذوا فى نشرها ، وقد بذلوا لذلك جهوداً جبارة ، وسلكوا سبلا متعددة ، فلم تمض مدة طويلة حتى كانت الثقافات قد غمرت العالمَ الإسلامى ، أو كادت ، وكانت السرعة التى انتشر بها العلم أشبه بسرعة انتشار الكهرباء من مصدره فى شبكة واسعة من الأسلاك .

وأهم وسائل نشر العلم عند المسلمين كانت ثلاثة هى :

١ — المدارس والمعاهد والجامعات .

٢ — المكتبات .

٣ — مراكز ثقافية أخرى .

وسنتكلم عن كل من هذه بشىء من التفصيل :

١ — المدارس والمعاهد والجامعات(*) :

اهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بإنشاء المدارس والمعاهد والجامعات ، ويمكن القول إنه بعد فترة من الزمن ليست طويلة كانت شبكة من المدارس قد تم إنشاؤها ، فأصبح بكل قرية أو مدينة مدرسة ابتدائية أو ثانوية ، ينبنى منهاج الدراسة فيها على تعليم القرآن وسيرة الرسول ، والقراءة والكتابة

(*) فى كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » للمترجم دراسة واسعة مفصلة لما أوجزه المؤلف هنا عن المدارس والمعاهد والجامعات. راجع الطبعة الثامنة من الباب الأول وبعض مواضع من الأبواب الأخرى .

وتحفيظ بعض الأشعار ومبادىء العلوم والرياضة وقواعد اللغة ، ويقول بروفسور Ballasteros وبروفسور Riberra إن مدارس الأطفال كانت كافية تقريباً لجميع الأطفال ، وأما التعليم العالى فقد أعدت له كليات ومعاهد وجامعات ، كما كان يقوم به بعض أعلام العلماء فى منازلهم الخاصة ، وكان الحكام والأمراء والوزراء والأغنياء يرون أن عليهم أن يكونوا رعاة العلم ، فكانوا يعقدون فى قصورهم ندوات علمية وأدبية ويفتحون المدارس والكليات ويشيدون المعامل وينشئون المستشفيات .

وأول مجمع علمى فى الإسلام هو ذلك الذى رعاه المأمون فى بغداد وأسماه بيت الحكمة (١) وقد سبقت الإشارة إليه ، وأما المعهد العلمى الثانى فمجموعة من الكليات تسمى المدارس النظامية ، وقد أنشئت أولاها ببغداد سنة ١٠٧٦ م وأنشأها الوزير الفارسى نظام الملك الذى كان وزيراً للسلطان السلجوقى ملك شاه ، وكانت المدارس النظامية مدارس داخلية وقد توجهت العناية فيها إلى إحياء الدراسات اللاهوتية ، وهو اتجاه أخذت به الجامعات الأوربية عندما أنشئت بعد هذا التاريخ ، ويرى Reuben Levy (٢) أن ملامح ذات بال يبدو أنها استعيرت من المدارس النظامية إلى الجامعات الأوربية التى ظهرت مبكرة .

وكان الغزالى مدرساً بنظامية بغداد مدة أربع سنوات ، ومن أحداث الصبا التى وقعت بالنظامية آنذاك أن بعض تلاميذها شربوا نقيع نبات خاص

---

(١) أنظر ما كتبته عن بيت الحكمة فى « تاريخ التربية الإسلامية » الطبعة الثامنة ص ١٤٨ وما بعدها . (المترجم)

(٢) A Baghdad Chronicle

ظناً منهم أنه يقوى الفطنة ويجعل الذكاء حاداً ، ولكنهم ما إن شربوا حتى فقدوا وعيهم ، وإذا بأحدهم يحضر إلى الدرس وهو شبه عار ، فضحك منه زملاؤه فى المدرسة ، وسأله الأستاذ عن سبب هذا الفعل الشائن الذى ارتكبه بحضوره إلى الدرس على هذا الوضع ، فأجاب أنه هو وبعض زملائه شربوا هذا النقيع ليقوّى ذاكرتهم ولكن زملاءه فقدوا وعيهم ولم يبق إلا هو متمالكاً قواه العقلية !

وبعد حوالى ثلاثة قرون على إنشاء نظامية بغداد أنشئت بالعاصمة جامعة جديدة هى المدرسة المستنصرية (التى أنشأها الخليفة المستنصر العباسى ٦٤٠ هـ) وقد اندمجت المدرسة النظامية فى المستنصرية فى السنين الأولى لإنشاء المستنصرية (١) ، ومما امتازت به المدرسة المستنصرية أن شيد لها مستشفى على اتصال بها لتعليم الطب .

ومن المدارس العليا الشهيرة ، المدرسة الرشيدية والأمينية والطرخانية والخاتونية والشريفية فى سوريا ، والناصرية والصلاحية فى مصر ، وقد كان طابع المدرسة النظامية هوطابع المدارس التى انتشرت فيما بعد فى الإمبراطورية الإسلامية . وصار فى بغداد وحدها ثلاثون مدرسة ، وفى دمشق عشرون، وفى القاهرة ثلاثون ، وفى الموصل ست . ولم تخل مدينة هامة من مدرسة أوأكثر من ذلك الطراز كالإسكندريةونيسابور وسمرقند وأصفهان ومرو وبلخ وحلب وغزنة ولاهور وغيرها ، وأما فى أسبانيا فقد انتشرت معاهد العلم

---

(١) تدل الدراسات الدقيقة التى قمت بها فى العراق بمساعدة بعض الأساتذة هناك على ما يخالف ما ذكره المؤلف هنا عن نهاية المدرسه النظامية (انظر هذا الموضوع فى تاريخ التربية الإسلامية ص ٢١٢ وما بعدها) . (المترجم)

انتشاراً كبيراً حتى ليقال إن قرطبة وحدها كان بها عدة مئات من هذه المعاهد ، وفى أكثر دور العلم هذه كانت تدرس الفلسفة والآداب والتاريخ والعلوم بفروعها المختلفة بجانب الدراسات الدينية .

وقد ظهرت فى أسبانيا معاهد للدراسات العالية ، كتلك التى يطلق عليها الآن جامعات ، ومن أشهر الجامعات الأسبانية جامعة قرطبة وأشبيلية ومالقة وغرناطة ، وعلى المدخل العام لجامعة غرناطة نقشت العبارة الآتية : « **يقوم استقرار العالم ونظامه على أربعة أسس : علم الحكماء ، وعدل الملوك ، وصلاة العابدين ، وبأس الشجعان** » .

وإلى جامعات أسبانيا هذه كان يفد الطلاب الأوربيون للتعلم والدراسة .

٢ — المكتبات(*) :

خلال العصر العباسى انتشرت صناعة الورق بالبلاد الإسلامية وأصبحت من الصناعات المحلية ، وعلى هذا انتشرت الكتب وأصبح تداولها سهلا يسيراً ، وكان الوارقون يقومون بنسخ الكتب وبيعها ، واهتم كثيرون بجمع الكتب فنشأ عن ذلك مكتبات عديدة هنا وهناك .

ومن الحق أن نقرر أن صناعة الورق هى من أهم ما منحه الشرق الإسلامى إلى أوربا عن طريق صقلية وأسبانيا .

ومن المكتبات التى حظيت بشهرة واسعة فى العالم الإسلامى فى القرن

(*) كتبت عن المكتبات بابا طويلا بكتابى تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٣ — ١٧٩ . المترجم

العاشر الميلادى مكتبة الموصل ، وكان العلماء يلجئون إليها للقراءة والنقل ، وكانوا يحصلون بالمجان على ما يحتاجونه من أوراق وأقلام .

وفى القرن نفسه كان صاحب مكتبة مماثلة بالبصرة لا يكتفى بمدّ الباحثين بالأوراق والأقلام ، بل كان يقدم منحاً منتظمة للطلاب الذين يدرسون بمكتبته .

وكثير من المكتبات كانت تبيح إعارة الكتب للاطلاع الخارجى مقابل شروط معينة ، وقد مدح ياقوت (١) الرومى المشرفين على المكتبات ببلدة مرو إذ سمحوا له أن يستعير مائتى مجلد دون أن يدفع ضماناً .

وكان فى الأندلس حوالى عشرين مكتبة عامة ، منها مكتبة قرطبة التى حوت وحدها (فى القرن العاشر الميلادى) . . . , ٤٠٠ مجلد ، أو ٦٠٠,٠٠٠ مجلد كما ورد فى رواية أخرى ، ويظهر الفرق واضحاً إذا قورن هذا العدد بما تحويه المكتبات المعاصرة فى أوربا إذ كان أقصى ما وجد بأية مكتبة آنذاك هو بضعة آلاف لا تتجاوز العشرة أو لا تصلها ، وقد ذكرت دائرة المعارف الكاثوليكية (Catholic Ency) — ولعل الرقم الذى تورده دقيق — أن مكتبة كنيسية كانتربورى (Canterbury) ، وهى أغنى المكتبات المسيحية المعاصرة كانت تحوى ١٨٠٠ مجلد فى القرن الرابع عشر ، أى بعد بوادر النهضة فى أوربا .

ويروى أن مكتبة دار الحكمة بالقاهرة كانت تحوى مليونين من المجلدات ، وأن مكتبة طرابلس السورية — التى أحرقها الصليبيون إبان

---

(١) معجم البلدان جـ ٦ : ص ٢٦ .

الحروب الصليبية الأولى — كان بها حوالى ثلاثة ملايين من المجلدات ، منها ٥٠,٠٠٠ نسخة من القرآن الكريم وتفسيره ، ومعنى هذا أن هذه المكتبة كان بها ثلاثة أرباع ما تحويه مكتبة بودليان (Bodleian Libraay) أو تحوى أكثر من نصف ما تحويه جميع مكتبات الهند وباكستان فى العهد الحاضر .

وكانت الكتب فى مكتبة الحاكم بالأندلس مرتبة فى أربعين حجرة ، كل حجرة كان بها ١٨,٠٠٠ كتاب ، وكانت خزانة الكتب التى أنشأها عضد الدولة فى شيراز تشغل ٣٦٠ حجرة وفسطاطاً ، تحيط بها الحدائق والمتنزهات

وكانت هناك مكتبات أخرى مماثلة فى البلاد الإسلامية الكثيرة ، مثل بغداد ، ورام هرمز ، والبصرة ، والرى ، ومرو ، وبلخ ، وبخارى ، وغزنة ، كما كانت هناك مكتبات كبيرة بالمساجد الشهيرة .

ومما يزيد فى قيمة هذه المكتبات ويضاعف من مقدار ما كان بها من مجلدات ، أن كتبها كانت كلها مخطوطات . إذ لم تكن الطباعة قد ظهرت بعـــد .

وكان خَـزَنةُ المكتبات دائماً من العلماء الأفذاذ ، ويكفى أن نذكر أن ابن سينا ، وابن مسكويه ، والشابشتى ، قد شغلوا هذه الوظيفة .

٣ — مراكز ثقافية أخرى :

إلى جانب المدارس والمعاهد والجامعات والمكتبات التى أنشئت للدراسات والأبحاث العميقة ، نجد أن كثيرين من العلماء كانوا أشبه بمدارس متنقلة ، فقد كانوا يجلسون فى بيوتهم أو فى المساجد أو فى الأضرحة حيث يتحلّـق حولهم الطلاب ، وينالون من معارفهم ، وكان بالمساجد والأضرحة

الشهيرة مساكن خاصة يلجأ إليها الغرباء من الطلاب للإقامة ، وكانت بها أمكنة أخرى خصصت لتلقى فيها الدروس والمحاضرات .

وكان كثير من المدرسين بالمساجد والأضرحة يتقاضون إعانات مالية تصرف لهم من أوقاف خصصها أغنياء المسلمين لهذا الغرض (١) . وكان المدرسون موضع احترام الناس وإجلالهم (٢) ولم تكن المحاضرات فى المسجد مقصورة على الدراسات الدينية بل تعدتها إلى الموضوعات الأخرى ، ولم تكن هذه المحاضرات كذلك مقصورة على الطلاب الذين يحضرون بانتظام ، بل كانت مباحة لجميع من يودون الاستماع إليها من الشبان والشيوخ (٣) ، وقد زار ناصر خسرو مسجد الأزهر فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وقرر أن حوالى ٥,٠٠٠ من الأشخاص كانوا يفدون إلى هذا المسجد يومياً للاستماع للمحاضرات التى كانت تلقى فى موضوعات مختلفة .

وكان هناك عدد كبير من المراصد ، انتشرت فى أمكنة كثيرة من الإمبراطورية الإسلامية ، وكانت هذه المراصد بمثابة معاهد لتعليم الفلك ، كما كانت المستشفيات الكثيرة معاهد لتعليم الطب ، وبجانب ذلك انتشرت الأندية الأدبية ، كما أقام الخلفاء والسلاطين والعظماء ندوات أدبية فى قصورهم كانت مما سبب رقى العلوم وانتشارها (٤) !

---

(١) انظر ما كتبته عن « الأوقاف على التعليم » بكتابى تاريخ التربية الإسلامية ص ٣١٢ وما بعدها . المترجم

(٢) انظر ما كتبته عن « المستوى الاجتماعى للمدرسين » بكتابى تاريخ التربية الإسلامية ص ١٧٠ وما بعدها . المترجم

(٣) انظر ما كتبته عن « حلقة التعليم » بكتابى تاريخ التربية الإسلامية ص ٣٢٠ وما بعدها . المترجم

(٤) انظر ما كتبته عن « الصالونات الأدبية » بكتابى تاريخ التربية الإسلامية ص ٥٨ وما بعدها . المترجم

الباب الرابع

الأفكار العلمية وتطورها

تقـــديم :

رأينا فيما سبق ما ازدان به العصر الإسلامى الزاهر من علوم ومعارف ، نتجت عن الفكر الإسلامى نفسه ، أو وَرِثها المسلمون عن الآخرين ، ونريد الآن أن نبين التراث العلمى الذى خلّفته النهضة الإسلامية للعصور التالية، وبادىء ذى بدء نقرر أن المسلمين تلقوا من الإسكندرية وسوريا وفارس علوماً ذات طابع عتيق لم تتطور منذ كتبها مؤلفوها ، فدرسها المسلمون وهضموها ، وأعادوا كتابتها مع زيادات وشروح . ونقلوها إلى أوربا فى ثوب قشيب ، وفى ضوء منهاج حديث ، كما نقلوا إلى أوربا علوماً أخرى كانت من مبتكرات المسلمين ووضعهم ، فقد كانت الفترة من القرن السابع الميلادى إلى القرن الثانى عشر فترة النهضة الإسلامية، وكان المسلمون خلالها قادة الفكر فى العالم أجمع ، ومع أن نجاحهم فى الدراسات الفلسفية كان كبيراً إلا أنهم فى الميدان العلمى كانوا أبعد نجاحاً وأعمق انتصاراً ، وفى هذا الباب سنورد لمحة سريعة نبين فيها الغاية الرفيعة التى وصلها المسلمون فى ميدان الأفكار العلمية ، مُرْجئين التطور فى الأفكار الفلسفية إلى الباب الرابع .

الفقه والقانون

لقد برع المسلمون براعة واضحة فى الدراسات الفقهية والقانون حتى أصبح الفقه الإسلامى يعالج أدق المشكلات فى الحياة الإنسانية ومن أهم اتجاهاته التى امتاز بها على القانون الرومانى أنه يقرر حرية الفرد وحقوق النساء والأطفال ، وأنه قانون عالمى شامل . .

ويقول Edmund Burke « **إن القانون الإسلامى يطبق على جميع المسلمين لا فرق بين الملك المتوج أو الخادم الفقير ، وقد حيك القانون الإسلامى أبرع حياكة وأحكمها ، حتى أصبح بحق أعمق وأسطع قانون عرفته البشرية** » .

ومن العلوم التى استحدثها المسلمون لاتصالها بالتشريع علم مصطلح الحديث . وبواسطة هذا العلم كانوا يستطيعون أن يتثبتوا من صحة نسبة الأحاديث إلى الرسول ، تلك الأحاديث التى شملت أقوال الرسول وأفعاله التشريعية ، فكانت إيضاحاً لكثير من دقائق الحياة ومشكلاتها ، ومن أعظم من برعوا فى جمع الأحاديث وفى علم مصطلح الحديث الإمام البخارى الذى أمضى سته عشر عاماً يطوف الأقطار الإسلامية ليقابل العلماء ويدون عنهم ما حفظوه من الأحاديث ، وقد قابل فى هذا التطواف حوالى ألف فقيه ودون عنهم حوالى ٦٠٠,٠٠٠ حديث ، ثم أعمل البخارى مقابيس النقد « علم مصطلح الحديث » فلم يثبت له من هذا العدد إلا ٧٢٧٥ حديثاً .

ومن أسس التشريع فى القانون الإسلامى « الإجماع » ، ومعنى ذلك أنه إن لم يرد نص فى القرآن أو الحديث الصحيح ليجيب عن سؤال ما يعترض المسلمين ، فإن الإجابة تُترك لما يراه ذوو الرأى من العلماء ، وهذا المبدأ هام جداً لأنه ضمن التطور فى القانون الإسلامى ليلائم كل زمان ومكان .

التاريخ وعلم الاجتماع

أفاد المسلمون فى دراستهم للتاريخ ، من علم مصطلح الحديث ، ذلك لأن علم مصطلح الحديث دربهم على أساليب النقد ومعرفة الصحيح من الزائف ، وكان لهذه الدربة أثر كبير فى نقد الروايات التاريخية ومعرفة ما يوثق به منها حتى ليقال إنه لم يجىء بعد هيرودوت من يضارع المؤرخين المسلمين فى دقتهم وعظمتهم ، وكثير من المؤرخين المسلمين احتملوا عناء الرحلات الطويلة لجمع المادة التاريخية أو لتحقيقها ، ومن الرحالة المسلمين ابن بطوطة (١٣٧٧ م) الذى طاف أغلب بقاع الأرض وبخاصة بلاد الهند ، وابن بطوطة نفسه ليس مؤرخاً ، ولكنه كتب سجلا كاملا حافلا بما رآه وما سمعه وما واجهه ، فكان ذلك السجل خير معين يلجأ إليه الباحثون فى تاريخ الهند فى العصور الوسطى .

ومن المؤرخين المسلمين فى العصور المبكرة الطبرى (٩٢٣ م) ، وقد رحل هذا المؤرخ من فارس إلى العراق والشام ومصر ، واضطر فى بعض الأحوال أن يبيع من ملابسه ما يشترى بثمنه قوتاً يقتات به ، وقد وصل لنا تاريخ الطبرى ولكنه غير كامل ، وقد حوى تاريخ الشرق قبل الإسلام وبعده حتى سنة ٩١٥ م ويقع هذا التاريخ فى ٢٥٠١ من الصفحات ، ويقال إن هذا القدر الذى وصل لنا عشر ما كتبه الطبرى ، ومما يروى عن هذا العالم أن متوسط ما كان يكتبه فى اليوم أربعون صفحة ، وأنه ظل على هذه الحالة مدة أربعين عاماً (١) .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ٦ ص ٦٢٤ .

ومن المؤرخين المسلمين أيضاً المسعودى (٩٥٦ م) ويلقب « هيرودوت العرب » وقد زار المسعودى جميع أقطار آسيا تقريباً ، بما فى ذلك الصين ومدغشقر ، وقد خلف لنا عملا علمياً ضخماً يقع فى ثلاثين مجلد كتبه عن تاريخ العالم من قبل الإسلام حتى سنة ٩٤٧ م وينظر المحدثون من المؤرخين فى الشرق والغرب إلى ما دونه هؤلاء المؤرخون الأول نظرة الواثق . ويرون أن عملهم كان محكماً ودقيقاً .

ومن المؤرخين المسلمين أيضاً ابن حيان (١٠٧٦ م) الذى كتب خمسين كتاباً أحدها عن تاريخ آسيا وعنوانه « المتين » ويقع فى ستين مجلداً .

وقد دون أبو الفرج الأصفهانى (٩٦٧ م) الأغانى العربية ، وترجم لمؤلفيها وللمغنيين لها ، فى كتاب ضخم يقع فى واحد وعشرين مجلداً .

ووضع « البيرونى » لأول مرة قواعد دقيقة لاختيار المادة التاريخية ونقدها ، وشرح الطريقة التى يستطيع الإنسان بها أن يقرر أن مادة تاريخية معينة صالحة ، أو موضوعة ، أو مبالغ فيها .

والمؤرخ الأندلسى ابن الخطيب (١٣٧٦ م) ألف ستين مؤلفاً فى موضوعات مختلفة ، وأشهر هذه المؤلفات « الإحاطة فى أخبار غرناطة » .

وقد دون المسلمون أيضاً تاريخ الفلسفة ، وممن كتبوا فى ذلك حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون .

وكتب التراجم التى دونها المسلمون تعتبر بحق أبرع وأعظم ما خلفوه من التراث العلمى ، ومن أهم مؤلفى كتب التراجم ابن عساكر (١١٧٧ م) الذى كتب كتاباً ضخماً يقع فى ثمانين مجلداً لمشاهير الإعلام بدمشق ، وممن

برعوا فى هذا الميدان أيضاً ابن خلكان الذى كتب تراجم أعلام المسلمين حتى منتصف القرن السابع الهجرى ، ويعتبره نيكلسون أحسن ما دون فى موضوع التراجم على الإطلاق .

ومن بين الذين لمعوا فى حقل الدراسات التاريخية ابن خلدون (١٤٠٦ م) وقد نال بعمله الضخم فى ميدان التاريخ شهرة رفيعة بين المؤرخين ، ولم يكتب ابن خلدون التاريخ فحسب ، بل فتح فى نفس الوقت آفاقاً جديدة لموضوعات هامة ، وكتب فيها كتابة العارف الواثق ، ومن هذه الموضوعات النظريات السياسية ، وتاريخ الفلسفة ، وعلم الاجتماع ، ويقارن Colosio (١) بين ابن خلدون وبين Machiavelli فى نظرتهما ، تجاه تدوين التاريخ السياسى والعلوم السياسية ، فيقول :

« إذا استطاع ابن فلورانس العظيم أن يشرح لنا فن الحكم والسلطان فإنه يكتب من وجهة نظر السياسى بعيد النظر ، ولكن العالم التونسى ابن خلدون استطاع أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية ويكتب عن الموضوع كاقتصادى ضليع ، وفيلسوف عميق ، وهذه حقيقة تدعونا أن نرى فيما كتبه ابن خلدون معارف واتجاهات كانت مجهولة تماماً حتى ذلك التاريخ » ومقدمة ابن خلدون هى التى خلدت له هذه الشهرة الذائعة والمكان الرفيع ، وقد سبق سواه فيها بأن أبرز لأول مرة نظرية التطور التاريخى التى تأخذ بعين الاعتبار أثر العوامل الطبيعية كالمناخ والبيئة الجغرافية ، والعوامل غير الطبيعية كالدوافع الخلقية والروحية .

---

(١) انظر Introduction a l'etude d'ibn Khaldoun

ومن ناحية كشف قوانين التطور الطبيعى والتدهور الطبيعى يعتبر ابن خلدون أول رائد ناجح فى هذا المضمار، وقد كشف عن طبيعة التاريخ والغرض الحقيقى من دراسته، وهو بهذا يعتبر المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع، والحق يقال إنه ليس بين الكتاب العرب أو الأوربيين من يضارع ابن خلدون فى نظرته إلى التاريخ نظرة شاملة فلسفية، وقد أجمع النقاد على أن ابن خلدون أعظم مؤرخ فيلسوف ظهر فى الإسلام (١)، وهو من أعظم المؤرخين الفلاسفة فى كل زمان ومكان، وليس هذا فحسب بل إن ابن خلدون يعتبر المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع. وابن خلدون أيضاً باعث علم الاقتصاد السياسى يقول Colosio إن « ابن خلدون كان رجل اقتصاد ذا عقلية مبدعة مبتكرة، وقد كشف أسس الاقتصاد السياسى وطبّقها بذكاء ومهارة قبل أن يعرفها العلماء الأوربيون بزمن طويل، وإذا كانت نظريات ابن خلدون الاجتماعية قد وضعته فى المقدمة بين فلاسفة المؤرخين وعلماء الاجتماع فإن فهمه لدور العمال والأجور ورأس المال وما دونه عن ذلك لجدير أن يضعه فى المقدمة بين أساتذة الاقتصاد الحديث.

---

(١) انظر Hitti : History of the Arabs

الجغرافيا

وفى ميدان الدراسات الجغرافية برز المسلمون بروزاً واضحاً ، ففى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى إبان حكم المأمون رسم الخوارزمى وأعوانه — وكانوا تسعة وتسعين — خريطة للسماء والأرض ، كما قام هؤلاء بمحاولة ناجحة لقياس محيط الأرض على أنها كرة ، وقد أجريت هذه المحاولة على سهل سنجار (سهل إلى الشمال من الفرات) وكذلك على مقربة من مدينة تدمر ،وكانت نتيجة هذه المحاولة أن توصل هؤلاء إلى أن طول الدرجة الزوالية ٥٦ ميلا وتلك نتيجة رائعة ، إذ لم ترد عن الطول الحقيقى لهذه الدرجة الذى حدد فيما بعد إلا بمقدار ٩٥٩ ياردة ، وتوصل هؤلاء — بعد معرفة طول الدرجة الزوالية — إلى أن محيط الأرض يبلغ ٢٠,٠٠٠ ميلا ، وأن نصف قطرها ٦٥٠٠ ميلا وقد ظهرت هذه النتائج فى الشرق حينما كان الأوربيون يعتقدون أن الأرض مسطحة .

وفى منتصف القرن التاسع قام المقدسى برحلات طويلة استغرقت عشرين عاماً زار خلالها أماكن مختلفة من العالم ، ثم دون ما يمكن أن يسمى دائرة معارف فى الجغرافية ، وصف فيها بدقة هذه الأماكن التى زارها ، وفى أواخر القرن التاسع ثم فى أوائل العاشر دخل إلى اللغة العربية ترجمتان كاملتان مستقلتان لجغرافية بطليموس ، وقد قام بهذه الترجمة عالمان كبيران أحدهما بعد الآخر ، وتلا ذلك أن ظهر باللغة العربية عدد من الدراسات الجغرافية الممتازة اتجهت مع — دراسة الجغرافيا — عدة اتجاهات ، فمنها ما اهتم مع الجغرافيا بالتاريخ أو بعلم تخطيط البلدان ، ومنها ما اتجه إلى ما نسميه الآن الجغرافيا الاقتصادية ، أو إلى ما نسميه الجغرافيا السياسية ، ومنها ما فصّل

القول عن نظام البريد فى عهد الخلافة ، ونظام الضرائب فى كل مقاطعة ، كما أن من هذه الدراسات ما اهتم بالمناخ والمناجم والمعـــادن .

وفى منتصف القرن العاشر نشر الأصطخرى مؤلفه عن جغرافية البلاد الإسلامية ، وألحق بهذا المؤلف خرائط ملونة لكل قطر من الأقطار الإسلامية .

وفى مطلع القرن الحادى عشر نشر البيرونى كتابه عن جغرافية روسيا وشمال أوربا ، وفى هذا القرن نفسه استطاع الزرقالى « أبو إسحاق إبراهيم ابن يحيى » أن يقرر أن طول البحر الأبيض المتوسط هو ٤٢ درجة وهو تقدير قريب جداً من الحقيقة .

وفى منتصف القرن الثانى عشر صنع الإدريسى — أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط فى العصور الوسطى — كرة سماوية وخريطة للعالم على شكل قرص وكلاهما من الفضة وقدمهما إلى روجر الثانى « Roger II »

ملك صقلية ، ومن أبرع ما وصل إليه الإدريسى أنه رسم خريطة لنهر النيل أبرز عليها منابع النيل الأصلية التى اكتشفها الأوربيون فى القرن التاسع عشر .

وفى سنة ١٢٩٠ صنع قطب الدين الجغرافى خريطة للبحر الأبيض المتوسط وقدمها إلى ملك إيران . ولكن أعظم الجغرافيين العرب على الإطلاق هو ياقوت (١١٧٩—١٢٢٩) الذى استطاع فى مطلع القرن الثالث عشر أن يخرج دائرة معارف جغرافية ضخمة فى ستة مجلدات كبيرة بعنوان : « معجم البلدان » . ويقولون عنه إنه منجم غنى بالمعرفة وليس له نظير فى

سائر اللغات ، ووضع أبو الفدا أمير حماه كتاب تقويم البلدان الذى ترجم إلى اللاتينية فى القرن الثامن عشر ، وكان مرجع كثير من علماء الغرب .

وبالإضافة إلى ما أضافه العرب من معلومات جغرافية لا تزال معيناً للباحثين والدارسين ، فقد كان المسلمون معبراً انتقلت بواسطته إلى أوربا أفكار اليونان الجغرافية والفكرة الهندية عن صورة الأرض . وعقيدة استدارة الكرة الأرضية ، والنظرية الصائبة عن أسباب المد والجزر .

ومما يدل على براعة العرب فى الجغرافيا ما نشرته مجلة (نيوزويك) الصادرة فى العاشر من شهر إبريل سنة ١٩٦١ أن الدكتور (هوى —لن — لى) الأستاذ بجامعة بنسلفانيا أورد بعض الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية قبل (كريستوف كولومبس) بأربعة قرون .

علم الفلك

وصلنا الآن إلى العلوم التى يمكن بحق أن نقول عنها إن المسلمين قد وضعوا أسسها فمكّن ذلك للأوربيين من أن يشيّدوا على هذه الأسس الدراساتِ الأوربيةَ الحديثة ، تلك العلوم هى الرياضة والطب والعلوم الطبيعية .

الفزارى :

وقد ذكرنا فيما سبق (عند الكلام عن الجغرافية) أن الفلكيين الذين كانوا يعملون فى كنف المأمون وبتشجيعه قاموا بمحاولة ناجحة لقياس محيط الأرض على أنها كرة وفى سنة ٧٧٣ م قدم رحالة هندى إلى العالم الإسلامى كتاباً اسمه « Sidhanta » وهو عبارة عن الجداول الفلكية الهندية ، وقد أمر الخليفة المنصور أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، فقام بترجمته العلامة الفزارى (المتوفى بين ٧٩٦ — ٨٠٦) وقد أصبح الفزارى بذلك أول فلكى فى الإسـلام .

الخـوارزمى :

وبعد الفزارى جاء الخوارزمى (٨٥٠ م) الذى أصبح رئيساً لعلماء الفلك فى بلاط المأمون ، وقد رسم الخوارزمى جداول فلكية خاصة به ، وانتفع فيها بما قدمه الفزارى من جهد فى هذه المادة ، وقد قام الخوارزمى أيضاً بدراسة النظام الفلكى الهندى واليونانى وأضاف إلى هذه الدراسة النتائج الرائعة التى وصل إليها بنفسه .

وبجانب المرصد الذى أقامه المأمون ورعاه ، كان هناك ثلاثة مراصد ببغداد ، ومراصد أخرى بمصر والرى وشيراز ونيسابور وسمرقند وجنديشابور ودلهى وإشبيلية وواسط وغيرها ،وقد وصل أبو جعفر الخازن فى أبحاثه إلى تحقيق انحراف دائرة البروج ،وحل مسألة عويصة حول هذا البحث كان قد تعرض لها أرشميدس دون نتيجة حاسمة . ويقول Draber عن مرصد إشبيلية إن هذا المرصد قد آل أمره بعد نهاية عهد المسلمين إلى أن أصبح مكاناً لناقوس إحدى الكنائس ، إذ لم يستطع المسيحيون الأسبان أن يعرفوا له وظيفة أخرى .

وقد استطاع الخوارزمى (المتوفى سنة ٨٣٥ أو ٨٤٥) أن يضع جدولا فلكياً دقيقاً ، وسار على نهجه فى هذا المضمار العلماء الفلكيون حبش بن حاسب ويحيى بن أبى منصور الذى عاش فى الفترة بين ٨٧٠ و ٩٧٠ والتبريزى (٩٢٢) والمجريطى (٩٥٠ — ١٠٠٧) والزرقالى المعروف فى الغرب باسم Arzachel (١٠٨٧) وناصر الدين الطوسى المتوفى سنة ١٢٧٤ م.

الزرقالى :

ومن مبتكرات الزرقالى أنه قدر فترة خسوف الشمس وحدد مدتها ، وابتكر إسطرلابا حديثاً حدد به البعد بين المجموعة الشمسية والنجوم وكذلك البعد بين الأرض والقمر ، ومما يذكر أن الأبحاث الحديثة بينت أن الفرق ضئيل جداً بين ما وصل إليه الزرقالى وبين ما وصل له العلم الحديث .

ومما وصل إليه أبناء موسى بن شاكر أن أكدوا ميل المحور الذى تدور حوله الأرض ، وبالتالى مقدار بعدها وقربها من الشمس ولم تكن كل هذه معروفة لدى اليونان .

الكوهى ونقطة الانقلاب الشمسى :

وسار الكوهى على هذا الأساس فوصل إلى تحديد نقطة الانقلاب الشمسى عند قمة الصيف وقمة الشتاء ، حيث الاتجاه نحو الخريف بعد الصيف ، أو نحو الربيع بعد الشتاء .

أبو معشر وقوانين الجزر والمد :

وقدم أبو معشر لأوربا لأول مرة قوانين الجزر والمـد، وصلتها بحركة القمر .

ابن جابر البتانى :

ومن عباقرة الفلكيين ابن جابر البتانى (٩٢٩ م) ويعترف البحاثة الغربيون بأنه أصلح كثيراً من أبحاث بطليموس الفلكية (١) ، وأنه حقق حساب الأفلاك التى يدور فيها القمر وبعض النجوم ، والتى أثبتت إمكان كسوف الشمس كسوفاً تاماً ، وحقق بدقة واضحة مقدار الانحراف فى دائرة البروج ، وحدد طول السنة فى الأقاليم الاستوائية وطول الفصول الأربعة وغير ذلك من ألوان التفوق الفلكى .

على بن يونس وعمر الخيام :

ومن الفلكيين الذين نبغوا ببلاط الفاطميين على بن يونس (١٠٠٩) وقد ألف للحاكم كتاباً مشهوراً عنوانه « الزيج الأكبر الحاكمى » وبحث فيه مسائل أظهر فيها تفوقاً عن بطليموس ، وقد كان النفع

---

(١) كان بطليموس يرى أن الأرض ثابتة ، وأنها مركز النظام الشمسى ، ولم يقبل العرب هذا الوهم وساروا خطوات واسعة نحو إثبات أن الشمس ثابتة ، وأن الأرض تدور حولها وتدور حول نفسها فى نفس الوقت .

بهذا الكتاب عظيماً وشاملا فنقله إلى الفارسية عمر الخيام ونقله إلى الصينية ، co - cheon - King واشتد النفع به فى بلاط المغول عن طريق عبد الملك ناصر الدين الطوسى ، وأثبت سند بن على ويحيى بن أبى منصور ملاحظات عظيمة الأهمية حول الاعتدال الشمسى ، والنجوم ذوات الأذناب ، وقياس الضوء ، وغيرها من الظواهر الفلكية وقد استعرض البيرونى (١٠٤٨) الذى مر ذكره نظرية بالغة الأهمية آنذاك هى نظرية دوران الأرض حول محورها ، كما وضع حدوداً واضحة لخطوط الطول والعرض ، ووضع عمر الخيام تقويماً أدق من التقويم الجورجيانى المشهور (the Georgian Calender) ، فقد اتضح أن تقويم عمر الخيام يفترق عن الأبحاث الحديثة بيوم كل ٥٠٠٠ سنة فى حين كان الفرق فى التقويم الجورجيانى يوماً كل ٣٣٣٠ سنة ، ومع أن عمر الخيام اشتهر بدراسة الهندسة والحساب ، فقد كتب بحثاً مستفيضاً فى الفلك .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الفلك :

هناك مؤلفات أربعة لأبى معشر ، وكذلك الجدول الفلكى الذى صنعه الخوارزمى ، وقد ترجمها كلها للغة اللاتينية يوحنا الأشبيلى John of seville وأدلارد الباثى (Adlard of Bath) ، أما الجدول الفلكى الذى صنعه البتانى فقد ترجمه إلى اللاتينية (Plato of Trivoli) ثم أعاد ترجمته بعد ذلك الفنسو العاشر (Alfonso X) وترجم جرالد الكرمونى كتاب الهيئة لابن جابر وقد نشرت هذه الترجمة سنة ١٥٣٢ وقد سجل هذا الكتاب تقدماً واضحاً وأدخل تحسينات كبيرة على أبحاث بطليموس ، وقد ترجمت إلى اللاتينية أبحاث أخرى كثيرة فى الفلك كتبها البحاثة المسلمون أمثال أبى بكر والقاضى والبتانى والفرغانى وغيرهم . وقد كان لهذه الأبحاث أثر واضح فى

تقدم هذا العلم بأوربا ، فمن المسلم به أن الجداول الفلكية التى وضعها (Alphonsine) وأكملها Alphonso العاشر لم تكن إلا تجديداً للفكر الإسلامى فى علم الفلك . ومثل ذلك يقال عن جداول Toeledan التى اتخذت أساساً لها ما كتبه المسلمون وخاصة ما كتبه الزرقالى ، وكذلك مؤلفات Ramond of Morselles التى كانت فى الحقيقة اقتباساً من جداول الزرقالى ، وقد حلت الجداول الفلكية التى صنعها المسلمون محل جداول اليونان والهنود واغنت عنها ، وقد شاع استعمالها حتى وصلت الصين ، وانتفع Copernicus بثقافة الفلكيين المسلمين بدليل أنه أورد فى كتابه De Revolution orbium Coelestium اقتباسات من الزرقالى والبتالى ، وبجانب هذا نجد اللغات الأوربية تستعمل بعض الألفاظ الفلكية العربية مثل Al-sumut المأخوذة من السموات و Nadir المأخوذة من كلمة ناظر مما يؤكد أن تراثاً إسلامياً من علم الفلك ضخماً تسرّب إلى أوربا المسيحية .

علوم الرياضة

الأرقام العربية والخوارزمى :

وفد على الخليفة المنصور العباسى عالم هندى يحمل رسالة فى الرياضيات كانت — فيما يقال — حجر الأساس فى الأبحاث الرياضية التى قام بها العرب ، وقد ترجم ابن الفزارى هذه الرسالة إلى اللغة العربية ، وعرف العرب عن طريقها استعمال الصفر كما عرفوا الأرقام الهندية . ومن أجل هذا أطلق على هذه الأرقام « الأرقام الهندية » وقد نقلت هذه الأرقام فيما بعد من اللغة العربية إلى أوربا ، ولهذا أطلق عليها الغربيون « الأرقام العربية » لعدم صلتهم بالأصل الذى أخذت عنه ، وقد ينسب الغربيون هذه الأرقام للخوارزمى العالم المسلم الرياضى لأنه أول من ألف رسالة عربية فى علمى الحساب والجبر واستعمل فيها هذه الأرقام ، وعن طريق هذه الرسالة وصلت الثقافة الرياضية إلى الغرب فرأى الأوربيون الأرقام لأول مرة ، وأطلقوا عليها اسم الخوارزمى Al gorisms نسبة إلى مؤلف الرسالة ، وتعد رسالة الخوارزمى سالفة الذكر أساساً لعلم الحساب كما نعرفه الآن .

وجاء بعد الخوارزمى أحمد النساوى (١٠٤٠ م) وينسب إليه توضيح قسمة الكسور ، واستخراج الجذور المربعة والمكعبة على طريقة قريبة جداً من الطريقة الحديثة .

وطور مسلمو أسبانيا الأرقام المعروفة بالأرقام الغبارية Chubar numerals واشتق اسمها Chubar من كلمة (الغبار) العربية وهى تختلف اختلافاً طفيفاً عن الأرقام الهندية ، والأرقام الأوربية المستعملة الآن أقرب

شبهاً بأرقام الغبار منها بالأرقام الهندية (١) .

واستعار الغرب من العرب كلمة Cifher أو Zero عندما استعاروا الصفر نفسه من العرب مع باقى الأرقام الهندية ، ومن الواضح أن استعمال الصفر كانت له أهمية عظمى فى المسائل الحسابية .

ونعود للخوارزمى لنقرر أنه مؤسس علم الجبر ، وأن كتابه المسمى « حساب الجبر والمقابلة » أقدم كتاب فى موضوعه ، وقد ترجمه إلى اللاتينية جرالد الكرمونى Gerald of Cremona فقدّم به إلى أوروبا علم الجبر مرتبطاً بكلمة « الجبر » وهى الاسم العربى لهذا العلم ، ولا يزال هذا الاسم مستعملا فى اللغات الأوربية ، وقد ظل هذا الكتاب مرجعاً لهذه الدراسات بالجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، ومما ينسب للخوارزمى أنه اقترح الجيوب (sines) فأحلها محل أوتار القوس المنسوبة إلى بطليموس (Chords) فى حساب المثلثات ، كما اخترع طريقة لحساب الدوائر والمعادلات من الدرجة الثانية ، وقد أسس عليها ابن الفزارى ما وصل له من تقدم فى حساب المكعبات .

عمــر الخيام :

وتقدم عمر الخيام بالرياضيات خطوات أخرى إلى الأمام ، وله فيها

---

(١) يقول الأستاذ عبد الهادى التازى سفير المغرب بالعراق فى حديث له نشر بمجلة دعوة الحق (عدد نوفمبر ١٩٧١) : إن الأرقام الهندية (التى نستعملها فى مصر والعراق (والأرقام الغبارية) التى تستعملها المغرب وأوربا (كلاهما انحدر من الهند ، ولكن ملامح الفكر العربى تظهر فى الغبارية أكثر مما تظهر فى الهند ، وقد استوردت أوربا هذه الأرقام من المغرب العربى ، وكذلك فهو يرى تشجيع استعمال هذه الأرقام الغبارية فى كل البلاد العربية .

كتاب نشر حديثاً بأمريكا (سنة ١٩٣٢ م) وفيه تطوير للطرق المتبعة فى حساب المثلثات والمعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط ، وهو أرقى ما وصل إليه العرب فى الجبر(١) .

ثابت بن قرة :

وممن حقق تقدماً ونجاحاً فى هذه الدراسات أيضاً أبو بكر محمد (١٠٢٩ م) . أما ثابت بن قرة (٩٠١ م) فقد حقق ما استحق أن يكسب له شهرة واسعة ومجداً كبيراً ، وهو فلكى كان يعيش فى بلاط المعتضد ، وهو الذى قدم للزوايا دراسة هامة ، واستعمل علم الجبر فى حل التمرينات الهندسية ، ووضع بذلك الأساس لعلم الهندسة التحليلية ، ولعلم الميكانيكا والفلك(٢) .

ومما ينسب إلى أبى جعفر الخازن أنه حقق انحراف دائرة البروج وحل مسألة عويصة عرض لها أرشميدس تؤدى إلى معادلة مكعبة .

وكما أسس العرب علمى الجبر والهندسة التحليلية فإنهم وضعوا الأساس كذلك لعلم حساب المثلثات ، وفى قمة من نبغوا فى هذا العلم البتانى (٩٣٠ م) الذى اكتشف غالبية النسب المثلثية الأساسية كما نستخدمها فى وقتنا الحاضر وهو أول من حسب قيمة الزواية ه ω من المعادلة(٣) .

---

(١) بل هو أرقى ما وصل إليه علماء الرياضة فى حل المعادلات فى الوقت الحاضر (انظر عبقرية العرب لعمر فروخ ص ٤٨) .

(٢) مما ينسب إلى ثابت بن قرة أنه حسب طول السنة فكان ٣٦٥ يوماً وست ساعات تسع دقائق وعشر ثوان ، فكان ما وصل إليه يزيد على طول السنة الحقيقى بأقل من نصف ثانية .

(٣) قام بترجمة هذه النظريات الرياضية بعض الزملاء المتخصصين فى الرياضة فلهم الشكر .

$$\frac{\text{جا هـ}}{\text{جتا هـ}} = \text{ظـا هـ}$$

وهو الذى كون المعادلة :

جتا ا = جتا ب جتا جـ + جا جـ جتا أ للمثلث الكرى .

ولقد كان أبو الوفا أول من عمم نظرية الجيب فى علاقتها بالمثلثات الكرية ، كما كان أول من أوجد فكرة الظل ، وظل التمام ، والقاطع . وقاطع التمام فى علم حساب المثلثات ، وأوضح العلاقة فى النسب المثلثية الستة .

وكتب البغدادى كتاباً عن المثلثات الكرّية ، وناقش الخويانلدى (١٠٠٠ م) كذلك النظريات الخمس الخاصة بالمثلث الدائرى ، وطور ابن يونس (١٠٠٨ م) خطوات أخرى بالدراسات الخاصة بالمثلث الدائرى وقدم قانوناً أدق لحساب الزوايا .

وكتب جابر بن أفلح (١١٥٠) فى أسبانيا مؤلفاً فى الفلك فى تسعة مجلدات ، عنوان « إصلاح المجسطى » وقد عده الباحثون تطوراً لكتاب المحيط لبطليموس ، وكان أول من قدم النظرية التالية :

جتا ب = جتا ب جا ا و جتا جـ = جتاب جتا ا فى مثلث فيه زاوية جـ قائمة .

وقد نسب بعض الباحثين خطأ نسبة علم الجبر إلى جابر هذا ، والحقيقة أن التسمية أخذت من كتاب الخوارزمى سالف الذكر المسمى « حساب الجبر والمقابلة » الذى ألفه الخوارزمى قبل جابر بأكثر من قرنين .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الرياضة :

وقد وفد إلى معاهد المسلمين بأسبانيا كثير من التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة وقادة فى الدراسات الرياضية والطبية ، ومن بين هؤلاء أدلارد البائى Adelard of Bath وورلى النورفلكى Morley of Norfolk البريطانيان . وكان هؤلاء يعودون إلى بلادهم ليعلموا أقوامهم ما تلقوه من أساتذتهم المسلمين ، كما كانوا يترجمون أهم ما كتبه الباحثون المسلمون ، فقد ترجم أدلارد سالف الذكر كتاب الخوارزمى عن النظرية الهندية فى الحساب والإحصاء ، وقد حملت هذه الترجمة للغرب — بجانب هذه النظرية — الأرقام التى سميت فى الغرب بالأرقام العربية ، أما الأرقام الغبارية فقد نقلت إلى الغرب بواسطة جربرت (Gerbert) الذى تلقى ثقافته فى أسبانيا أيضاً قبل أن يحتل منصب البابوية باسم سلفر ستر الثانى silverster II (٩٩٩ — ١٠٠٣ م) ولم تستعمل هذه الأرقام فى الغرب قبل منتصف القرن الثالث عشر ، وكان استعمالها على يد لونرودو فيبانوسى Leonardo febanoce وقد تلقى هذا دراسته أيضاً على يد مدرس مسلم ، ومؤلفات لو نردو كانت حجر الأساس فى الرياضة عند الأوربيين ، وقد حوت هذه المؤلفات النسب المثلثية الستة التى وضعها الرياضيون المسلمون ، ومثل هذا يقال عن مؤلفات Jecob of florance التى كان واضحاً أنها كررت ما قدمه العرب من دراسات فى الرياضيات . أما المؤلفات التى كتبها Goerg Purbach أستاذ الرياضيات فى فيينا فى القرن الخامس عشر فقد اعتمدت أكثر الاعتماد على أبحاث الزرقالى ، وبجورج هذا تلميذ اسمه Johannes Muler أصبح فيما بعد أستاذاً فى Padus وله بحث فى الرياضيات نشر أكثر من مرة خلال القرن السادس عشر ، ويعتبر أول بحث كامل فى حساب المثلثات كتبه أوربى ، وقد كان هذا البحث بكل تأكيد أقل مستوى من الأبحاث التى كتبها العرب .

الموسيقى

يرتبط تقدم المسلمين فى الموسيقى بما أحرزوه من تقدم فى الرياضيات ، فقد عرف المسلمون السُّلَّم الموسيقى،وقياس الوتر، والإيقاع الدقيق ، قبل أن يعرفها الأوربيون بعدة قرون ، ومنابع الموسيقى الإسلامية ترجع إلى الموسيقى البيزنطية والفارسية بالإضافه إلى الموسيقى العربية التى عرفها العرب قبل الإسلام ، ويرجع الفضل فى خلق هذا المزيج إلى سعيد بن مسجح (٦٨٣ م) الذى درس هذه الفنون الموسيقية ومزجها مكوِّناً أول لبنة فى صرح الموسيقى الإسلامية ، وسار تلميذه ابن محرز (٧١٥ م) خطوات أخرى إلى الإمام فى هذا السبيل ، ثم جاء يونس الكاتب (حوالى سنة ٧٤٢) وهو موسيقى من حاشية الوليد الثانى فكتب أقدم كتب عربية فى الموسيقى ، ومن بينها كتاب عنوانه : « كتاب القيان » .

وفى فترة الترجمة الشاملة إبان عهد الرشيد والمأمون ، نقل إلى العربية كثير من المؤلفات اليونانية . وجاءت بعد ذلك فترة المؤلفات العربية فى الموسيقى ، فكتب إسحق الموصلى الذى ازدان به بلاط الرشيد عدة كتب فى الموسيقى ، وألف الكندى (٨٧٣ م) الفيلسوف المشهور الذى سنتحدث عن فلسفته فيما بعد، سبعةَ مؤلفات فى الموسيقى عرض فيها قوانين الموسيقى الإيقاعية عرضاً شاملا، ويروى الكتاب الغربيون أن أحد هذه المؤلفات نال أعظم تقدير فى أوربا ، وحوت رسالة الخوارزمى عن الرياضيات فصلا ضافيا عن الموسيقى ، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى اللاتينية بعنوان Laber Ysagogsrum Alchorismı وقام بترجمتها ادلارد البائى الذى مر ذكره .

وألف ابن عبيد الربيحى (٩٤٠ م) كتاباً ترجم فيه لمشاهير الموسيقيين ، على أن أبا الفرج الأصفهانى (٩٦٧ م) بلغ فى هذا غاية المدى فى كتابه الأغانى الذى تحدث فيه بإفاضة عن الأغانى ومؤلفيها والمغنين والمغنيات الذين قاموا بأدائها .

إخوان الصفا والفارابى :

وأسهم إخوان الصفا فى خدمة الموسيقى بنصيب كبير ، ولكن أرقى الدراسات للموسيقى النظرية قدمها الفارابى الفيلسوف دائع الصيت (٩٥٠ م) فقد دوّن شروحاً عظيمة الفائدة على ما كتبه اليونان فى هذا الفن ، ثم توج أعماله عن الموسيقى بأن خصص لأبحاثها ثلاثة كتب من مؤلفاته الضافية ، هذا بالإضافة إلى تناوله الحديث عن الموسيقى فى بعض فصول كتبه الأخرى وبخاصة كتابه « إحصاء العلوم » الذى ترجم إلى اللاتينية فى عهد مبكر وكان له فى الغرب نفوذ كبير .

وقد ترجم أيضاً إلى اللاتينية ما كتبه عن الموسيقى الفيلسوفان الشهيران ابن سينا (١٠٢٧ م) وابن رشد (١١٩٨ م) وكانت كتبهما كتباً تعليمية ذائعة الإستعمال فى كل مدارس أوربا .

وأسهم فى خدمة الموسيقى أكثر الفلاسفة كالغزالى (١١١١ م) وابن باجة (١١٣٨ م) . وناصر الدين الطوسى (١٣١٠ م) وجلال الدين الدوانى (١٥٠١ م) ولم يقتصر الأمر على الفلاسفة بل إن كثيرين غيرهم قدموا دراسات مفيدة عن الموسيقى نذكر منهم المجريطى (١٠٠٧ م) والكرمانى (١٠٦٦ م) والحداد (١١٦٥ م) وشمس الدين محمد (١٣١٠ م) وعبد القادر عيسى (١٤٣٥ م) ومحمد بن مراد (١٣٨١ م) .

من الفكر العربى للفكر الغربى فى الموسيقى :

وعند نهاية القرن الثانى عشر كانت أهم المؤلفات العربية فى الموسيقى قد تمت ترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، وقد تمت هذه الترجمة فى مدينة تليدو Toledo ، ولا تزال آثار هذه الترجمات ظاهرة فى الموسيقى الغربية حتى العهد الحاضر إذ يتجلى فيها ما نقله Franco of Copogna (١١٩٠ م) وهو — إلى حد كبير — يتبع الكندى فى أبحاثه واتجاهاته الموسيقية ، وبعد فرانكو هذا ظهرت رسالة بعنوان Ochetus وهى تنسب إلى John o garland وموضوعها دراسة الأنغام ، ويرى الدكتور حتى احتمال اقتباس عنوان هذه الرسالة (Ochetus) من كلمة « إيقاعات » العربية ، وبالتالى اقتباس موضوعها من الفكر الإسلامى .

وقد اقتبس الغرب — بالإضافة إلى الموسيقى الإيقاعية ودراسة الأنغام — كلمات إصطلاحية كثيرة فى الموسيقى نذكر منها الكلمات الآتية :

الأصل العربى	الكلمات اللاتينية
العــــود	The Lute
الرباب	The Repic
النفير	The anafil
البانديره (باللغة العامية)	pandero
صنوج	Sonajas
القيثارة	The guitar
النقارة	The naker
القانون	The kanoon

علوم الكيمياء (*)

بين المصريين والإغريق والمسلمين

حقق المصريون القدماء خطوات طيبة فى مجال علم الكيمياء ، وقد انتقل جزء كبير مما حققه المصريون فى هذا المجال إلى بلاد الإغريق مع ألوان من العلوم الأخرى التى اقتبسها الإغريق من المصريين القدماء .

ولكن يلاحظ أن الإغريق غلبت عليهم الاتجاهات الفلسفية ، فاكتست العلوم المختلفة من طب وكيمياء وطبيعة وغيرها فى بلاد الإغريق غلالة فلسفية ، ثم انتهت هذه الدراسات بسبب هذا الاتجاه إلى الأساطير والخرافات ، وهكذا كانت الآراء النظرية هى المسيطرة على العلوم فى بلاد الإغريق ، وعلى الرغم من جهود أرسطو فى البحث والتدقيق ، فإن البحث العلمى الحق القائم على الملاحظة والتجربة لم يبدأ إلا عند المسلمين .

ويتجه « ول ديورانت »(١) إلى التأكيد على أن المسلمين هم الذين استحدثوا علم الكيمياء بوصفها علما من العلوم ، وهم الذين أدخلوا عليها الملاحظة الدقيقة ومنهج البحث العلمى القائم على التجربة والعناية برصد نتائجها ، وابتكروا لها الآلات فتمكنوا بذلك من الكشف عن هذا الحشد الكبير من المنجزات التى كانت من المغيبات فى هذا الميدان ، ومن أجل

(*) هذا الموضوع من إضافات المترجم .

(١) قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٨٧ .

هذا يقول جابر بن حيان : ما افتخرت الحكماء بكثرة العقاقير ، وإنما افتخرت بجودة التدبير(١) .

وهكذا اهتم المسلمون اهتماماً واسعاً بالتجربة وتتبعوا مراحلها بدقة ، وأثبتوا نتائج هذا التتبع ، متخذين القاعدة التي ترى أن الشك أول شروط المعرفة ، وهى قاعدة لم يعرفها الغرب إلا بعد عدة قرون .

ويصف جابر بن حيان منهجه التجريبي بقوله :

— والله قد عملته بيدى ، وبعقلى قبل اليد ، وبحثت عنه حتى صح ، وامتحنته فما كذب .

— فمن بى نتائجه على الدربة كان عالماً حقاً . ومن لم تكن له دربة لم يكن عالماً .

— من لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشىء أبداً .

وانتفع المسلمون بدراساتهم فى الكيمياء فى الصناعة والطب ، واستخدموا أكسيد المغنسيوم فى صناعة الزجاج وعرفوا صناعة الصابون ، واستخرجوا الزيوت العطرية من الزهور ، واستخرجوا المواد التى تمنع الصدأ عن الحديد ، وتجعل الخشب غير قابل للاحتراق ، ووصلوا إلى طرق متعددة لدبغ الجلود وتصنيعها ، وتطورت عندهم صناعة الورق ، كما ظهر على يد جابر بن حيان الورق الذى لا يقبل الاحتراق ، واكتشفوا البارود ، واستخدموه فى قذائف واخترعوا الأسلحة النارية .

---

(١) محمد كمال الدين : العلوم الطبيعية عند العرب ص ٣١ .

الكيمياء لفظ عربي :

حدد الخوارزمى أن لفظ الكيمياء لفظ عربى ، مما يدل على أن هذا العلم ازدهر فى رحاب الإسلام والعرب فقد جاء فى كلام الخوارزمى قوله : اسم هذه الصناعة الكيمياء وهو اسم عربى مشتق من الفعل « كمى يكمى » إذا ستر وأخفى ، ويقال كمى الشهادة يكميها إذا كتمها ومنعها(١) .

إخوان الصفا وعلوم الكيمياء :

وقد بكر إخوان الصفا فى الاهتمام بالدراسات الكيماوية فكتبوا سبعة عشر فصلا فى هذه الدراسات من مجموعة فصول رسائلهم وعددها اثنان وسبعون(٢) .

جابر بن حيان :

ونجىء إلى جابر بن حيان(٧٦٦ م)الذى يعَدُّ أعظم باحث فى علم الكيمياء ، وقد كانت كتبه عند ظهورها فى القمة ، وصارت بعد القرن الرابع عشر أهم مصادر هذه الدراسات وأكثرها فى التأثير وقيادة التفكير العلمى فى الشرق والغرب ، مما سجل بحق اسم جابر فى مقدمة من أفادوا علم الكيمياء وطوروه من الناحيتين النظرية والعلمية ، ومن السبق الثابت له أبحاثه فى التكليس وإرجاع المعدن إلى أصله بالأوكسجين ، كما أنه قد

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٤٦ .

(٢) كانت البصرة أهم مركز لنشاط إخوان الصفا . وقد ظهرت هذه الجماعة حوالى منتصف القرن العاشر . وتعد هذه الرسائل دائرة معارف لشمولها مختلف العلوم والفنون . وهى أول دائرة معارف فى التاريخ . « المترجم »

حسن أساليب التبخر والتصعيد والصهر والتبلور ، وهو الذى أعد حامض الأستيك وحامض الكبريتيك وحامض النيتريك ، واكتشف أن الذهب والفضة يمكن أن يذوبا فى خليط من الحامضين الأخيرين .

ومما توصل له جابر كذلك أنه اكتشف عدة مواد كيماوية ، واستطاع أن يعزل حجر الكحل والزرنيخ من الكبريتور ، ونظريته عن عناصر المعادن فاق بها نظرية أرسطو ، وقد قبلها الغرب وظلت أساس الدراسات فى أوربا — بعد تعديل طفيف — حتى القرن الثامن عشر ، وكان جابر يقول :

إن واجب المشتغل فى الكيمياء هو العمل وإجراء التجارب ، وأن المعرفة الحقيقية لا تحصل إلا بهما ، وفى كتابة « نهاية الإتقان » وصفٌ للتجارب والعمليات الكيماوية التى قام بها ، وفى هذه العمليات من الدقة مالا يقل عما نجده فى تجارب العصر الحاضر .

مسلمون آخرون اهتموا بالكيمياء :

واستطاع الجاحظ (٨٦٨ م) خلال دراساته الكيماوية أن يحصل على النشادر من روث الحيوان (ملح الأمونيا) عن طريق التقطير الجاف .

ومن عظماء الباحثين فى الكيمياء (الرازى ٩٢٣ م) وقد ترجم إلى اللاتينية كتابه الضخم المسمى : « كتاب الأسرار »وقام بترجمته Gerald of Cremone فكان أشهر مرجع فى عهده .

وكتب التيفاشى (١٢٥٣ م) رسالة عنوانها « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » شرح فيها عناصر أربعة وعشرين حجراً من الأحجار الكريمة وتكلم عن طبيعتها .

وسار البيرونى فى هذا المضمار فقدم فى كتبه عن الطبيعة دراسات كاملة تقريباً عن الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعاً من المعادن والأحجار الكريمة .

العلوم الطبيعية

(الصوت والضوء)

وصل المسلمون فى أبحاثهم فى العلوم الطبيعية إلى غاية لا تقل عن الغاية التى وصلوا إليها فى الرياضيات والكيمياء ، فقد كتب الكندى الفيلسوف المشهور فى علم الضوء ، كما كتب فى كثير من العلوم ، ومن كتبه التى اشتهرت فى الشرق والغرب مصنَّفُه فى علم البصريات مطبقاً على الآراء الهندسية والفسيولوجية (علم وظائف الأعضاء) وكانت ترجمته التى عنوانها : De aspectibus ذات أثر كبير فى ثقافة Roger Bacon .

ابن الهيثم :

على أن ابن الهيثم (١٠٣٩ م) فاق الكندى فى هذا المجال من الدراسات، فقد أثبت أنه — بالإضافة إلى نبوغه فى الرياضيات والفلسفة — كان أعظم مسلم فى دراسة البصريات وعلم الضوء ، وينسب إليه أنه كتب مائتى كتاب فى هذه الدراسات .

ومن مبتكرات ابن الهيثم أنه عارض أقليدس وبطليموس فى قضية مصدر **الشعاع الذى يسبب الرؤية ، فأثبت أن الرؤية تتم بواسطة أشعة تنبعث من المرئى ، لا من العين كما كان يظن أقليدس وبطليموس . وأثبت ابن الهيثم** بالتجربة انعكاس الضوء وانكساره ووضع قانون سير الأشعة سيرا كروياً (منحنياً كانحناء مسطح الأرض) واكتشف مبادىء النقل النوعى ، كما

اكتشف أن وزن الجسم يختلف باختلاف كثافة الهواء الجوى قبل أن يعرف هذا بأوروبا بخمسة قرون وأثبت كذلك قانون الجاذبية .

ومما ينسب كذلك لابن الهيثم أنه بتجاربه استطاع أن يكتشف نظرية العدسات المكبرة ، وقد اخترعت هذه العدسات فى إيطاليا بعد هذا الكشف بحوالى ثلاثة قرون .

وقد ترجمت رسالة ابن الهيثم فى البصريات إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ م وكان لها تأثير كبير فى تطوير هذه الدراسة بالغرب ، وكانت أساساً لكل الدراسات والأبحاث التى كتبها علماء أوربا فى العصور الوسطى ، ولا يستثنى من ذلك Leonardo و Bacon و Kepler .

وفى مطلع القرن الثالث عشر كتب الجزارى كتاباً هاماً فى الميكانيكيات ، ووصف باحث آخر اسمه رضوان ساعة مائية قال إن أباه قد صنعها ، واخترع المسلمون الرقاص والمرايا ، وعنهم انتقلت هذه الأشياء إلى أوربا ، وكتب ابن سينا رسالة فى التعدين واستخراج المعادن ، فأصبحت من أهم المصادر التى اعتمد عليها الباحثون الغربيون فى دراسة طبقات الأرض .

علم التاريخ الطبيعي

كانت أبحاث المسلمين ودراساتهم فى التاريخ الطبيعى عالية المستوى كبيرة الفائدة .وقد شملت الدراسات النظرية والعملية عن النبات والحيوان .

ففى النبات نجدهم ينشئون حدائق للتجارب الزراعية فى بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها ، وقد توصلوا فى تجاربهم إلى إدراك الاختلاف التناسلى بين بعض النباتات كالنخيل ، كما استطاعوا تقسيم النبات على أساس مصدر نموه ، وما إذا كان ينمو بنفسه (Wild) كبعض نبات الصحراء ، أو ينمو بطريق البذور كأكثر النباتات ، أو بطريق عقل منه كالقصب .

أبو زكريا وابن البيطار :

ومن مشاهير علماء النبات المسلمين أبو زكريا (أواخر القرن الحادى عشر) الذى كتب كتاباً هاماً فى ذلك الموضوع بعنوان « كتاب الفلاحة » كان له صيت واضح خلال القرون الوسطى . ومنهم أبو جعفر الغافقى القرطبى (١١٦٥ م) الذى ألف رسالة حشد فيها كل نباتات أسبانيا وشمالى إفريقية ، وسمّى كلّ نبات باسمه العربى واللاتينى والبربرى ووصف هذه النباتات وصفاً بالغ الدقة .

وجاء بعد ذلك ابن البيطار (١٢٤٨ م) وهو ألمع مؤلف فى هذا العلم فى العصور الوسطى ، وقد زار ابن البيطار عدة أقطار ليدرس الأعشاب والنباتات ويجمع المادة والأفكار حتى استطاع أن يؤلف كتابين شهيرين ، تحدث فى أحدهما عن مائتى نوع من أنواع النباتات ، فقدم معلومات لم تكن معروفة قبله .وبهذا عُدّ كتابه هذا فريداً فى بابه ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية ، وأعيد طبع بعض أجزاء من

الترجمة سنة ١٧٥٩ م وعلى العموم فقد أضاف العرب لعالم النبات دراسات عظيمة وقدموا للباحثين معلومات ذات بال عن حوالى ألفى نوع من النباتات لم تكن معروفة قبلهم .

الجاحظ والدميرى المصرى :

وأما عن الحيوان فإن الجاحظ كتب فيه كتابه الشهير : « كتاب الحيوان » وهو يحوى مبادىء نظرية النشوء الحديثة . كما يحوى كثيراً من المعلومات عن سيكلوجيا الحيوان .

ومن مشاهير الذين كتبوا عن الحيوان الدميرى المصرى ، (١٤٠٥ م) ولعله أشهر المسلمين الذين كتبوا فى هذا الباب ، وكتابه « حياة الحيوان » أعيد طبعه عدة مرات .

وهناك كتاب عن تدريب الصقور ينسب إلى فردريك الثانى ، ويرى بعض الباحثين أنه أقدم كتاب فى موضوعه ، ولكن الحقيقة أنه مبنى على تراجم لاتينية لمؤلفات عربية وفارسية فى نفس الموضوع .

الطب

قبل الإسلام وبعده (*)

مقدمة تاريخية :

ازدهرت العلوم الطبية فى الشرق القديم وبخاصة على ضفاف النيل ، وانتقل جزء من هذه العلوم إلى اليونان فنما وازدهر ، ولكنه سرعان ما خبا عندما سيطرت المسيحية على أوربا ، وعندما أعلن القسس أن الكتاب المقدس هو كل شىء ، وإنه يحوى كل ما تحتاجه البشرية ، وأن ما سواه باطل .

وفى هذا الجو لم يَبْقَ هناك علاج للمرضى فى أوربا ، بل كان الطبيب أحيانا يقتل المريض بطريقة أو بأخرى لينقذه مما يعانى من آلام ، أو كانت الخرافات تأخذ مجالها لطرد الشياطين الذين اعتُقِد أنهم يجلبون الأمراض لبنى الإنسان .

ويروى « زيفريد هونكه » أن الدور المخصصة للمرضى كانت تسمى (مأوى الله) = Hotel Dieu ، أى أن الله وحده هو الذى يمكن أن يشفى هذا المريض دون وساطة علاج أو دواء ، ويقرر أن هذه الدور كانت مباءة بعيدة عن النظافة ، وعن الغذاء الصحى ، وعن الدواء .

ومثل هذا يقال عن هذه الأمكنة فى مناطق جنوب شرق آسيا ، فإن اسمها كان ولا يزال Romah Sakit أى بيت المرضى ، فهو بيت

(*) هذه الصفحات — حتى الكلام عن تطوير الطب — من إضافات المترجم

يوضع فيه المرضى حتى يلاقوا مصيرهم الذى كان ينتظر الكثيرين منهم وهو الموت ، وقليل منهم من كان ينجو ويخرج للحياة .

وقد جاء الاسم العربى أو الإسلامى لأول مرة وهو المستشفى أى مكان الشفاء ، إذ اتخذه المسلمون مكانا لتقديم العلاج والدواء للمرضى رجاء أن تعود لهم الصحة والعافية .

المستشفيات الإسلامية :

وابتداء من العصور الإسلامية المبكرة عرف المسلمون « المستشفى » فقد أقام الرسول فى غزوة الخندق خيمة بالمسجد كان يوضع فيها الجرحى ، وكان العارفون بالطب يتولون علاجهم والإشراف عليهم ، وتطورت العناية بالطب من عام إلى عام حتى أصبح العالم الإسلامى زاخرا بالأطباء الميامين ، وزاخرا كذلك بالمستشفيات .

ومما يذكر أن المستشفيات بالعالم الإسلامى كانت أحيانا ثابتة كمستشفيات بغداد والقاهرة وقرطبة ،وكانت أحيانا متنقلة تمر بالقرى والمدن الصغيرة وتقدم العلاج والدواء للمحتاجين .

وعرف المسلمون كذلك علاج المساجين وتخصيص أطباء لهم حتى لا تنتشر الأمراض فيهم ، وحتى ينال مرضاهم الشفاء .

وكان للرجال فى المستشفيات أقسام خاصة وللنساء أقسام أخرى ، كما كانت بالمستشفيات أقسام متعددة حسب الأمراض ، وأحيانا كانت هناك مستشفيات خاصة لكل مرض من الأمراض فمستشفى للرمد والعيون وآخر للجراحة وثالث للأمراض الباطنية وهكذا ، ونتج عن ذلك وجود أطباء تخصصوا فى أمراض بعينها بالإضافة إلى الأطباء الذين برعوا فى أكثر الأمراض أو كلها

العلاج مجانى :

ومما يذكر أن العلاج والدواء كانت بدون أجر فى المستشفيات ، ولدى بعض الأطباء الذين كانوا يتبارون فى تقديم الخدمة العامة ، أو كانوا ينالون مرتباتهم من الحكومات .

وعرف المسلمون المستشفيات التعليمية التى كانت ملحقة بمدارس الطب وكلياته وفى هذه المستشفيات كانت توجد المراجع العلمية ، والمحاضرات جنبا إلى جنب مع المرضى ليعيش العلم بجانب التجربة .

أطباء فلاسفة وفلاسفة أطباء :

وبهذه المناسبة نذكر أن الأطباء المسلمين المشاهير كانوا ينقسمون قسمين ، قسم يسمى الأطباء الفلاسفة وهؤلاء يباشرون الطب ويطوّرونه وفى قمتهم الرازى ، والقسم الثانى يسمى الفلاسفة الأطباء وعلى رأسهم ابن سينا ، وكان هذا الفريق يهتم بالطب دراسة ومعرفة ، فهو فى القسم الأول عمل ، وفى القسم الثانى دراسة وفلسفة .

أمراض عرفها المسلمون :

والذى يطالع معارف المسلمين فى الطب يجد أنهم عرفوا أنواعاً من الأمراض ودرسوها دراسة عميقة ، فقد عرفوا الجذام ، والحصى فى الكلى ،والحصبة ، والجدرى،وأمراض السكر،والتهابات الأضلاع ،وغيرها من الأمراض ، كما عرفوا العدوى ومصدرها ، والتطعيم ووسائله ونتائجه .

التشريح والتخدير :

وعرف المسلمون التشريح ومارسوه ، كما أنهم عرفوا التخدير لممارسة الجراح وبالتالى عرفوا التعقيم ، والأدوات الضرورية للجراحة والتشريح

الطب النفسي وعلاجه :

وعرف المسلمون الطب النفسي وأدركوا أسبابه وطرق علاجه ، وكان الأوربيون يعتقدون أنه مسٌ من الجن ، وقد قال إخوان الصفا عن ذلك : إن النفوس يعرض لها أمراض مختلفة بحسب الزمان والمكان والطباع ، ويسلك أطباء النفوس فى مداواتها مسلك أطباء الأجسام فى العلاجات المختلفة(١) .

ويذكر ابن سينا إن من أهم العلاجات النفسية تقوية المريض جسمانيا وروحياً ، وتشجيعه ليمكنه مكافحة المرض ، وتجميل محيطه ، وإسماعه ما عذب من الموسيقى ، وإحاطته بالناس الذين يحبهم .

ويضيف الرازى إلى ذلك أن يوهم الطبيب مريضه بتقدُّم صحته ، وتغلبه على مشكلاته .

تطوير الطب :

طوَّر المسلمون علم الطب تطويراً شاملا على النحو الذى عملوه مع مختلف الدراسات ، وتأثرت ثقافة الغرب الطبية تأثراً عميقاً بما اقتبسه من المسلمين فى هذا المضمار . وقد بدأت عناية المسلمين بكليات الطب وبالمستشفيات التابعة لها فى وقت مبكر ، أى منذ اتجهوا بعنايتهم لخدمة الثقافة وخدمة العلوم ، فقد أسس هارون الرشيد فى القرن التاسع أولى كليات الطب ببغداد ، وسرعان ما تتابع إنشاء كليات الطب فى مختلف العواصم الإسلامية ، ووضعت لها الكتب الطبية المناسبة التى ترجمت فيما بعد إلى مختلف اللغات الأوربية ،

---

(١) رسائل إخوان الصفا ص ٤٨٤ .

ولعل أولى الرسائل الطبية التى وضعها المسلمون ، تلك الرسالة التى كتبها على الطبرى سنة ٨٥٠ م وقد اتخذت هذه الرسالة الأفكار اليونانية والهندية فى الطب أساساً لها ، وكان اسمها « فردوس الحكمة » .

أحمد الطبرى :

وفى نفس الفترة تقريباً نبغ أحمد بن الطبرى ، وهو أول من اكتشف مرض الجرب ووصف « حشرة الحكة » .

تطور الطب فى كنف الرشيد :

وفى ظل الخلفاء المسلمين ورعايتهم نبغ عدد كبير من الأطباء غير المسلمين ، وفى مقدمة هؤلاء يحي بن ماسويه (٨٥٨م) وهو طبيب نسطورى شهير نبغ فى بغداد فى كنف هارون الرشيد ، وينسب ليحي هذا ولتلميذه حنين بن إسحق (٨٧٣ م) أقدم كتب دراسية فى الرمد وأمراض العيون ، وقد ترجم حنين بن إسحق مؤلفات أبقراط وجالينوس فى الطب وعلق عليها تعليقات مفيدة ، وترجمت هذه المؤلفات مرة أخرى إلى اللاتينية بما حوته من تعليقات وشروح ، وأصبحت فى أوربا قبلة الدارسين خلال القرون الوسطى ، وظهر فى القرون الوسطى كذلك حوالى ثلاثين مؤلفاً فى الطب لكتاب عرب أسهمت مع المؤلفات السابقة فى خدمة الطب وتطويره.

تقدير الغرب لجهود المسلمين :

ولهذا كانت كتب العرب هى المرجع الوحيد للدراسة الجامعية بأوربا أكثر من خمسة قرون،وظلت كتبعلوم الطببوجهخاص هى المصدر الوحيد للفكر والدراسة طيلة ثمانية قرون ، واستمرت جامعة (مونبليه) تستشهد بآراء ابن سينا فى قانونه إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وأنصفت جامعة برستون الأمريكية الفكر العربى عندما خصصت أفخم جناح فى أجمل بناء لمآثر الطبيب الفيلسوف العربى أبى بكر الرازى، وأنشأت بجانبه

دارا لتدريس العلوم العربية ونقل أفكارها للغة الإنجليزية .

جهود الــرازى :

وكان الرازى (٩٢٣ م) أول واضع لعلم الطب التجريبى ، إذ كان يجرى تجاربه على الحيوانات ، ويقدم لها أنواعا من الأدوية فى حالات معينة ، ويختبر تأثيرها على هذه الحيوانات ، ويسجل جميع ما يشاهده .

والرازى كذلك هو واضع طريقة المشاهدة ، التى لا تزال متبعة حتى الآن ، فكان يدع مريضه يسرد قصته على سجيّته ، ويسأله عن أحواله الحاضرة وسوابقه الشخصية والإرثية ، ويدون جميع ذلك فى سجل خاص يحفظه ويبنى عليه تقديره لحال المريض .

والرازى كذلك هو أول من عرف الحصبة والجدرى والأمراض النفسية ، ووصف لها جميعا أنواع العلاج والدواء .

وتعتبر مؤلفات الرازى دوائر معارف لكثرتها وشمولها ، ويعتقد أنه فاق جالينوس فى كثرة أبحاثه وعمقها ، وقد كتب فى علم الطب وحده مائتى كتاب ، ومن أجل هذا يعده Edward Browne (١) أقدر الأطباء المسلمين وأكثرهم ابتكاراً وأعظمهم إنتاجا . ومن أشهر كتبه « الكتاب المنصورى » وهو كتاب عظيم يقع فى عشرة أجزاء ، وقد ترجم إلى اللاتينية فى ميلانو حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، وترجمت أجزاء منه حديثا إلى الفرنسية والألمانية ، ومن

Arabian Medicine p. 404 (1)

مؤلفاته الرائعة رسالته عن الجدرى والحصبة ، وهى أول رسالة على الإطلاق حوت معلومات دقيقة عن تشخيص هذين المرضين وعلاجهما ، وقد ترجمت إلى اللاتينية سنة ١٥٦٥ م ثم ترجمت بعد ذلك إلى عدة لغات أجنبية ، واتخذت هذه الرسالة مكانها خلال العصور الوسطى فكانت أهم المراجع الطبية فى موضوعها . وقد نشرت ترجمتها الإنجليزية سنة ١٨٤٧ م .

ومن أعظم كتب الرازى كذلك كتاب « الحاوى » وهو دائرة معارف تقع فى عشرين جزءاً ، وقد جمع هذا الكتاب بين دفتيه كل ما وصل إليه الإغريق والفرس والهنود فى الطب ، بالإضافة إلى مبتكرات المؤلف الطبية ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية سنة ١٢٧٩ م فى صقلية ، وطبع بعد ذلك سنة ١٤٨٦ م وأعيد طبعه بعد هذا التاريخ عدة مرات ، ومن الواضح أن مؤلفات الرازى أثرت أثراً عميقاً فى الفكر الغربى وكانت أساساً له ، كما كانت مناراً للغرب عدة قرون .

على بن العباس وابتكاراته :

ومن مشاهير الأطباء المسلمين كذلك على بن العباس (٩٩٤ م) وقد كتب كتاباً رائعاً فى الطب عنوانه « الكتاب الملكى » ترجم أكثر من مرة إلى اللاتينية وانتشر فى أوربا ، ومن أهم مباحث هذا الكتاب تلك الفصول التى كتبها عن علم الأغذية الصحية وعلم العقاقير الطبية ، ومن مبتكرات على بن العباس إشارته إلى وجود الحركة الدموية الشّعرية ، وبرهانه على أن الطفل فى الولادة لا يخرج من تلقاء نفسه بل بفضل تقلصات عضلية فى الرحم .

أطباء العيون (على البغدادى وعمار الموصلى) :

وممن خدم أمراض العيون من المسلمين على البغدادى وعمار الموصلى ، وقد تركا مؤلفات ممتازة تشرح أعضاء العين وما يعتريها من أمراض وطرق علاجها ، وقد ترجمت هذه المؤلفات إلى اللاتينية ، وصارت بجامعات أوربا أحسن كتب يعتمد عليها الأساتذة والطلاب حتى منتصف القرن الثامن عشر .

وفى نفس الموضوع كتب ابن الهيثم (٩٦٥ م) رسالة عامة عن أمراض العيون بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن مؤلفات هذا العالم الكبير ، ولا تزال الترجمة اللاتينية لهذه الرسالة موجودة حتى الآن ، وقد كانت أساس التفكير الغربى فى هذه الدراسات ،ويرى De Boor أن ابن الهيثم فاق فيتلو (القرن الثالث عشر) فى حذقه وملاحظاته .

الصيدلة وابن البيطار :

ومن الأطباء المسلمين الذين لهم نصيب كبير فى هذه الدراسات ابن البيطار الدمشقى (١٢٤٨ م) مؤلف كتاب « الأدوية المفردة » وهى مجموعة من « الوصفات » الطبية التى أثبتت نجاحاعظيما فى الشرق والغرب، وكانت من أسس علم العقاقير ، وقد ترجمت إلى اللاتينية بعنوان « Simplicibus » وطبعت ثلاثة وعشرين مرة خلال القرن الخامس عشر وبعده ، واستعمل هذا الكتاب فى تكوين أول صيدلية إنجليزية أعدتها كلية الطب فى عهد جيمس الأول ، وظلت بعض أجزاء هذا الكتاب موضع العناية فترة طويلة ، فقد أعيد نشرها سنة ١٧٥٨ م بمدينة كريمونا .

الزهراوى وآلات الجراحة :

ونجىء الآن للحديث عن ابن قاسم الزهراوى القرطبى (حوالى سنة ١٠١٣ م) الذى كتب موسوعة فى الطب أسماها « التصريف » وقد ترجم بعض أجزاء هذه الموسوعة إلى اللاتينية فى القرن السادس عشر . وقام بالترجمة جرالد الكرمونى . وطبعت الترجمة عدة مرات آخرها طبعة أكسفورد سنة ١٧٧٨ م وظلت — عدة قرون — الكتاب الوحيد المعول عليه فى فن الجراحة بأوربا(١) ، وقد وصفت هذه الموسوعة آلات الجراحة وصفاً دقيقاً ، وساعدت الباحثين الغربيين على وضع الأسس لفن الجراحة .

ابتكارات الزهراوى :

وأورد الزهراوى فى رسالته السابقة كثيراً من الآراء المبتكرة ذات الشأن فى الجراحة ، ومنها تعقيم الجروح ، وضرورة تشريح بعض الأجسام بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة للانتفاع بهذه النتائج فى الأحوال المماثلة ، وكذلك تشريح بعض الحيوانات التى تشبه الإنسان لنفس الغرض ، ومن مبتكراته كذلك الوصول إلى مجموعة من الطرق التى تستعمل لسحق الحصاة بالمثانة .

ابن رشد وجهوده فى الطب :

ومن الذخائر التى ألفها المسلمون فى الطب تلك الموسوعة التى كتبها ابن رشد بعنوان « الكليات فى الطب » ومن أهم ما ورد بها تلك الحقيقة التى أثبتها الطب الحديث وهى أن الجدرى لا يصيب الإنسان مرتين ، ومما ورد فى هذه الموسوعة أيضاً إيضاح كامل لوظيفة شبكية العين .

ابن سينا :

وممن وصلوا إلى القمة فى الفلسفة والطب الرئيس ابن سينا (١٠٣٧ م)

---

(1) Sir Thomas Clifford albutt: Encyclopaedia Britannica

ويذكر سير توماس كليفورد(١) أن الأوربيين يرون أن مؤلفات ابن سينا فى الطب غطت على ما سواها حتى على ما كتبه أبقراط وجالينوس ، ومن أجل هذا أصبحت مؤلفات ابن سينا فى الطب كتباً معتمدة للدراسة بكليات الطب بجامعات أوربا مدة طويلة ، وكتاب ابن سينا بعنوان « القانون فى الطب » يُعد دائرة معارف شاملة للطب والجراحة ، ولذلك أصبح — ابتداء من القرن الثانى عشر حتى القرن السابع عشر — المرشد الرئيسى لعلوم الطب فى أوربا ، وقد طبع هذا الكتاب — فى خلال الثلاثين عاماً الأخيرة للقرن الخامس عشر — أكثر من خمس عشرة مرة باللغة اللاتينية ، كما طبع مرة باللغة العبرية ، وبلغ من تقدير الأوربيين له أن طبعت ترجمة إنجليزية لبعض أجزائه سنة ١٩٣٠ م فى مدينة لندن ، ويقول وليام أوسلر(٢) : إن هذا الكتاب كان مرجعاً مقدساً للدراسات الطبية ، وقد حظى بهذه المكانة مدة لم يحظ بها مرجع آخر .

ابن زهر :

ومن أطباء الأندلس المشاهير ابن زهر (١١٦٢ م) ويعتبره ابن رشد أعظم طبيب مسلم ، وقد كتب فى الطب عدة كتب أهمها « التيسير فى المداواة والتدبير » ويعتقد الكثيرون أن ابن زهر أول الباحثين فى موضوع الإحساس بالعظام ، وموضوع حشرة الجرب ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وطبع أكثر من مرة .

المسلمون والعدوى :

وقد تكلم الأطباء المسلمون عن العدوى ووسائل انتقالها ، وممن عنى

---

(١) المرجع السابق .

(٢) The Evolution ot Medical Science

بهذا الموضوع ابن الخطيب الذى كتب كتاباً شرح فيه أن العدوى تتم بواسطة الاتصال بحامل الجراثيم مباشرة أو عن طريق ملامسة الأوعية التى يستعملها والهواء الذى يحيط به .

وقد صنف ابن جزلة (١١٠٠ م) تقويماً للأمراض قريب الشبه بالتقاويم الفلكية من ناحية الشكل . عدد فيه الأمراض وأوجز أدواءها ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية سنة ١٥٣٢ م .

الطب البيطرى :

ولم يغفل المسلمون الطب البيطرى ، وأهم من عنى به يعقوب ابن أخى حزام (٩٠٢) الذى كان بيطاراً ببلاط الخليفة المعتضد وكتب رسالة فى تربية الخيل عنوانها « الفروسية وشياه الخيل » حوت كثيراً من مبادىء فن البيطرة .

وفى الحيوان عرف العرب التهجين ، وتحسين النسل ، وقد أخذت الخيول العربية شهرتها العالمية من ثقافة العرب فى هذا المجال ، ويعتبر كتاب الحيوان للجاحظ من أروع ما كتب فى هذا المجال من حيث الدقة والوصف والأدب والتجارب الدقيقة ، وهو يحكى ذلك بقوله فى مقدمة هذا الكتاب « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ، وحبب إليك التثبُّت ، وزين فى عينيك الإنصاف .

التخــــدير .... :

ومن معارف المسلمين الطبية أنهم عرفوا الوسيلة لتنقية الدم فى العروق وعرفوا التغذية الصناعية بواسطة الأنابيب الفضية . واستعملوا مادة الأفيون

فى عمل مواد تنظيف الأسنان وتطهير اللثة ، واخترعوا مادة البنج التى كانت تستعمل عند العمليات الجراحية .

والعرب أول من نظموا العقاقير الطبية كما سبق القول ، وهم أول من أنشئوا الصيدليات ، واستعملوا المستشفى المنتقل وهو أعظم مما يعرف الآن بعربات الإسعاف لأنه لا يقدم الإسعافات السريعة فقط بل يقدم علاجاً أرقى وأشمل ، ويتولى عمل العمليات الجراحية ، وينتقل من بلد إلى آخر لهذا الغرض .

وابتكر المسلمون إجراء الكشف الطبى للتأكيد من صلاحية من ستوكل لهم أعمال تحتاج إلى شروط صحية خاصة .

وقد ساعدتهم معرفتهم بالكيمياء على ابتكار عقاقير طبية لم تكن معروفة قبلهم ، وعلى تركيب عقاقير خاصة من عدة مواد ، ولا يزال كثير من ابتكاراتهم الطبية وعقاقيرهم مستعملة حتى العهد الحاضر . وسنتكلم فيما بعد عن الصيدلة وتاريخها وجهود المسلمين فيها .

وقد تسرب إلى اللغات اللاتينية كثير من الكلمات العربية ذات المدلول الطبي نورد منها الكلمات التالية :

اللغة اللاتينية	الأصل العربي
Comphre	كافور
Rob	رب : نوع من المربى
Safran	زعفران
Surop	شراب من الماء والسكر يستعمل للعلاج مع إضافة بعض المواد الطبية كما يتبع حتى الآن
Alkhosam	الخـزام
Sodaa	صداع وكانت كلمة Sodaa فى العصور الوسطى اللاتينية تستعمل بمعنى دواء للصداع .
Muac	المسك
Alchohl	الكحل .
Cotton	القطن
Arithmid	إثمـد .
Tutty	توتيـاء .

ويقول سير توماس كليفورد(١) : إن كثيراً من العقاقير والوصفات الطبية المستعملة فى العهد الحاضر يرجع أصل تركيبه إلى العرب ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ساعد عليه علم الكيمياء الحديث .

وقد بدأ الطب العربى يؤثر فى أوربا منذ منتصف القرن الحادى عشر

Eucyclopaedia Britannice (1)

ولكن الأثر الواضح بدأ بعد القرن الثالث عشر حيث أصبح الطب العربى قدوة انبثق منها شعاع الفكر الأوربى فى الدراسات الطبية . وأصبح المادة التى اعتمد عليها الأساتذة والطلاب فى كليات الطب بالجامعات التى بدأت آنذاك تظهر فى بادوا (Padna)وبولونيا(Bolognia) ومونتبيلير (Montpelier)

والذى يزور كلية الطب بجامعة باريس الآن يرى صورتى العالمين المسلمين العظيمين الرازى وابن سينا تزدان بهما أعظم الأبهاء فى هذه الجامعة العريقة .

المسلمون وطرق البحث العلمى

خصص Briffault فى كتابه Makiny of Humanity فراغاً كافياً شرح فيه نقطة هامة من مآثر المسلمين العلمية ، تلك طريقة البحث التى ابتكروها ولم تكن معروفة قبلهم ، وهو يقول فى هذا الموضوع ما يلى :

« تلقى Rager Bacon عن العرب ثقافته العلمية وطرق البحث العلمى ، ولا يستطيع بيكون ولا سميه الذى جاء بعده أن يدعيا أنهما ابتكرا الطريقة التجريبية ، تلك الطريقة التى هى من صنع العرب وحدهم ، ولم يسبقهم لها باحث أو مفكر ، وكل ما عمله بيكون أنه كان تلميذاً مخلصاً للمسلمين فتلقى أفكارهم كما تلقى عنهم الطريقة التجريبية التى ابتكروها ونقلها إلى أوروبا المسيحية ، وظل بيكون يعترف بهذا دون ملل ، وكان يؤكد أن علوم المسلمين كانت له ولمعاصريه الطريق الوحيد للثقافة الصحيحة ، أما النقاش حول هذا الموضوع ومحاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب فليست إلا حلقة من حلقات التضليل ، وليست إلا تصحيفاً فى فهم المصدر الحقيقى للحضارة الأوربية ، ومن الواضح أن بيكون لم يبتكر الطريقة التجريبية كما يدعى المتأخرون ، إذ كانت هذه الطريقة واسعة الانتشار فى أوربا فى عهد بيكون مما يدل على أنها كانت قد بدأت قبله بزمن طويل .

« ومع أنه لا يوجد جانب واحد فى الحضارة الأوربية دون أن تكون

ثقافة المسلمين واضحة التأثير فيه ، فإن تأثير المسلمين أخطر وأوضح فى الروح العلمية وفى الدراسات التى تحتاج إلى التجارب لإثباتها .

« والدراسات العلمية انبثقت عن مدنية المسلمين بلا شك ، فالعالم القديم كان مناهضاً لهذا النوع من الدراسات ، لقد اهتم الإغريق بالتنسيق والتعميم والنظريات ،ولكن الدراسة التى تحتاج إلى صبر ،واختبار طويل، وملاحظة دقيقة ، وبحث فى التفاصيل ، وتجارب متعددة ، هذه الدراسة غريبة جداً على الفكر الإغريقى ، والدراسات العلمية التى ظهرت فى أوربا كانت نتيجة لروح جديد فى البحث ، وطرق حديثه فى الاختبار والفحص ، وكانت كذلك نتيجة للتجارب والملاحظات والتقدم فى الرياضيات ودقة المقاييس ، وكل هذه الدعائم لم تكن معروفة للاغريق ، إنها جميعاً هدية العرب إلى أوربا » اهـ .

وقد تحدثنا عن بعض الطرق التى سلكها المسلمون فى البحث العلمى عند كلامنا عن علوم الكيمياء فيما سبق .

الصيدلة (*)

تاريخ الصيدلة :

كان الأطباء فى العصور السابقة يباشرون شئون الصيدلة ، فالطبيب هو الذى كان يفحص المريض ويعرف مرضه ، ويعد له الدواء ويقدمه إليه ، وبهذا كان الطبيب يحمل عبء الطب والصيدلة والتمريض ، وبتطور الزمن وتعقيد الأمور كان لابد من ظهور الصيدلى بجوار الطبيب ليأخذ تعليمات الطبيب ويحاول أن يضعها موضع التنفيذ ، وهو بهذا يصبح مسئولا عن الحصول على الأعشاب المختلفة ، ومعرفة البدائل عند اختفاء العشب المطلوب .

وبجوار الصيدلى ظهر فن التمريض أيضا وكلها فنون مساعدة للطب .

وتخصص الصيدلى فى هذه الشئون وعرف تفاصيلها ، فهو كما يقول البيرونى : عميق المعرفة بالعقاقير الضرورية بأجناسها وأنواعها وصورها المختارة ، ويجيد خلاط المركبات من الأدوية .

وقد كان ظهور مهنة الصيدلانى على يد العرب ، فهم أول من فصلوا بين واصف الدواء والطبيب ، ومحضّره أو مُعِدّه .

(*) الكلام عن الصيدلة من إضافات المترجم .

الصيدليات العامة :

عندما فصلت الصيدلية عن الطب ، ظهرت الصيدليات بجوار المستشفى . وظهرت مستقلة أحياناً ، فقد أصبحت كائناً خاصاً ، وأصبحت الصيدلة مهنة مستقلة لها عميدها وعليها مسئوليتها ، وكان المحتسب يباشر نشاطه فى ملاحظة الدقة فى الصيدليات وفى أعمالها ، بحيث يكون الدواء مطابقاً لما كتبه الطبيب .

وهناك أدوية كان الصيادلة يعدونها بحيث تكون حاضرة عند طلبها ويكثر ذلك عند انتشار أوبئة بذاتها ، أو عندما يكون إعدادها صعباً يحتاج إلى وقت طويل،فهذه الأدوية كانت تُعَدُّ وتعبأ بدقة تامة لتسلم للمريض عندما يطلبها .

عقاقير أضافها العرب :

ومن التجارب العربية أضاف الإنسان العربى مواد كثيرة ذات مفعول خطير فى جوانب متعددة من الأمراض ومن ذلك الكافور والقهوة والصندل والمسك والعنبر ، وكثير جداً غيرها وكان ذلك لخبرتهم فى علم النبات ولتجاربهم الراقية فيما يتعلق بالأعشاب .

ومن هذه الاستعمالات تنبيه القلب بواسطة القهوة ، ووصف البن المطحون لعلاج الجروح والتهاب اللوزتين ، واستعمال الكافور لإنعاش القلب ، واستعمال مسحوق الحناء للجروح .

وهم الذين تعرّفوا على عفن الخبز واستعملوه مرهما للجروح .

واستنبط العرب دواء ضد أنواع السموم ، وآخر لتسهيل الهضم ،

وخففوا وطأة بعض العقاقير بمزجها بعصير الليمون أو البرتقال أو مسحوق القرنفل .

والعرب هم الذين غلّفوا بعض الأدوية بمادة سكرية حتى يسهل تناولها .

والعرب هم الذين ابتدعوا كثيرا من الطرق لتحضير الأدوية وتنقيتها كالتقطير والترشيح والتبخير والتصعيد والتذويب وغيرها .

وقد ابتكر الزهراوى جهازاً نقش عليه اسم الأقراص التى تستعمل لبعض الأمراض ، بحيث تكون متناسبة فى حجمها وواضحة فى استعمالها .

وهناك مراجع عربية لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الأدوية منها كتاب فردوس الحكمة فى الطب للطبرى ، وكتاب سر الأسرار للرازى ، وكتاب (الملكى) لعلى بن عباس ، وكتاب الصيدلة فى الطب للبيرونى ، وكتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ، بالإضافة إلى ما كتبه ابن سينا فى كتابه « القانون » عن الأدوية وأنواعها وفوائدها ، وقد أشرنا لبعض هذه الكتب فيما سبق .

الباب الثالث

الأفكار الفلسفية وتطورها

تقديم :

لم يسجل المسلمون في ميدان الفلسفة ابتكارات واسعة كتلك التي سجلوها في ميدان العلوم (١) ، ومع هذا فقد حققوا في هذا المجال تقدماً جديراً بالذكر ، فقد درس المسلمون فلسفة الهند ، وأحاطوا بالفكر الإغريقي ، كما كانت لهم أفكار وتأملات نابعة منهم ، وكانت هذه الأفكار عميقة وشاملة ، واصطدم المسلمون بالمشكلات الفلسفية التي قابلت غيرهم في مختلف العصور ، وكانت الحلول التي اقترحوها لهذه المشكلات غير جازمة وإن كانت أوضح من تلك التي اقترحها سواهم من الأمم ، وعلى كل حال فقد كانت حلولهم مقنعة إلى حد كبير ، وقد مهدوا بهذه الحلول الطريق إلى دراسات أوفى ، وأسهموا بها في النهضة الأوربية التي اتخذت من ثقافة المسلمين أهم أسسها ، وهذا في الحقيقة يمكن أن يكون سبباً هاماً من أسباب الفخار للمسلمين .

والمشكلات التي شغلت الفكر الفلسفي الإسلامي كثيرة ، وأهمها مشكلة الوحي والعقل ، وحدوث العالم ، وخلق الأفعال . ويمكن أن نقسم المفكرين المسلمين إلى الجماعات التالية :

١ — المتكلمون ويشمل هؤلاء طائفتين هما :

(ا) المدرسة العقلية (المعتزلة) .

(ب) المدرسة النقلية (الأشاعرة) .

٢ — المتصوفة .

٣ — الفلاسفة .

وسنتكلم عن كل طائفة على حدة .

---

(١) السبب في ذلك أن الإسلام كبح تفكيرهم في مجال الفلسفة . فكانوا يخافون الانحراف فظل النطاق الفلسفي الذي يباشرونه ضيقا نسبيا . (المترجم)

١ – المتكلمون

(ا) المدرسة العقلية (المعتزلة)

بدأ التفكير الفلسفى عند المسلمين بالمعتزلة ، ولفلسفتهم أسس يمكن إجمالها فيما يلى .

– الوحى والعقل مصدران للمعرفة ، ومن أجل هذا لزم أن يكون بينهما تناسق تام وعدم تعارض فيما يمنحان من معارف ، **وإذا ظهر بينهما تناقض أوِّل النصّ حتى يتّفق مع العقل السليم** .

– العالم حادث ، وليس أبدياً ؛ له أول وله نهاية .

– الجوهر شىء يمكن معرفته أو الحديث عنه .

– الوجود مجرد صفة يمكن أن توجد وألا توجد ، وبها يتحقق وجود شىء ، وبدونها لا يتحقق الشىء ، ومع هذا فالشىء جوهر وجنس ومرتبة ، فإذا منحه الله صفة الوجود دخل الشىء عالم الوجود وأصبح شيئاً مادياً ، والوجود هو الصفة الوحيدة التى تجعل الشىء مادياً .

– الله واحد ، وهو أبدى سرمدى ، لامبدأ لوجوده ، ولانهاية له سبحانه وتعالى .

وليس لله صفات زائدة عن الذات كصفات البشر الزائدة عن ذواتهم ، وإنما هو تعالى قدير بذاته ، مريد بذاته ، عالم بذاته . . .

– العالم حادث . والله خالق العالم .

– الله لا يريد الشر ولا يخلقه ، كما أنه لا يخلق المستحيل .

— والله لم يخلق أفعال العباد ولا قضى عليهم فعلها ، والإنسان هو الذى يخلق فعل نفسه ، ويحاسَب من أجل ذلك على ما يفعله .

— العدالة فى قمة الصفات الخلقية ، وقد ألزم الله بها نفسه .

— ليست هناك شفاعة للأبياء والصديقين يقدمونها لينالوا النجاة لأتباعهم الأشرار ، فالعدالة الإلهية تقضى أن ينال المذنبون جزاء خطاياهم .

وأبرز أساتذة هذه المدرسة الفكرية واصل بن عطاء (٧٤٨ م) والنظّام (٨٤٥ م) والجاحظ (٨٦٨) وإخوان الصفا (منتصف القرن العاشر) ، وقد أثار النظّام بعض الآراء التى لم يستسغها مفكرو عصره فذهب ضحية ما أثار .

(ب) المدرسة النقلية (الأشاعرة)

اتضحت معالم هذه المدرسة وظهرت اتجاهاتها كنتيجة للنهج العقلى الذى سلكه المعتزلة ، فقد أثار اتجاهُ المعتزلة كثيرين من علماء المسلمين فى أمكنة مختلفة ، فهبوا يقاومون اتجاههم ، ويتمسكون بالنقل ، ويحاولون التوفيق بينه وبين العقل ، ومن ثم فالمدرسة النقلية لم تنشأ فى مكان واحد أو فى فترة واحدة ، وإنما قادها علماء هنا وعلماء هناك، يردّون ما عدّوه زيغا من المعتزلة وأهم من قاد هذه الحركة ابن حزم بالأندلس ، والطحاوى بمصر وأبو منصور الماتريدى فى ما تريد بالقرب من سمرقند ، والأشعرى فى العراق ، وله تنسب هذه المدرسة ، وذلك لسعة نفوذه وعمق أبحاثه ، وقد اتخذ الأشاعرة طريق المحاورة الذى انتهجه المعتزلة ليستطيعوا به أن يدحضوا اتجاهات معارضيهم بأسلحة تشبه أسلحتهم .

ومع أن الأشاعرة يختلفون مع بعضهم البعض حول بعض النقاط ، فإنهم يلتقون فى العناصر الرئيسية للتفكير ، وأهم الموضوعات التى تحدثوا عنها هى :

١ – مصدر المعرفة .

٢ – خلق الأفعال .

٣ – مشكلة الصفات .

٤ – نظرية الجوهر الفرد .

وسنتحدث عن كل من هذه بشيء من التفصيل (١) .

١ - مصدر المعرفة :

العلم أن تعرف الشيء على حقيقته لا أن تعرفه كما يبدو لك ، ولكن ما الحقيقة نفسها ؟ لقد أجاب المسلمون عن هذا السؤال إجابة أشمل مما أورده « كانت » على السؤال نفسه ، كما أثبت ذلك ماكدونالد ، ففهم الشيء أو إدراكه ليس معناه معرفته ، وذلك لأن الأشياء تفهم وهي مرتبطة بزمان ومكان مما قد يخدع الإنسان عن الحقيقة نفسها ، وأهم المعرفة معرفة الله ، وهي قد تحصل بالعقل ولكنها لا تجب إلا بالسمع ، ويقرر الأشعري أن العقل يستطيع أن يدرك وجود الله كما يدرك كل حسن ، ولكن العقل آلة للإدراك فقط ، أما الأصل الوحيد للتكليف فهو الوحي ، والأشعري بذلك يقف من مسألة الحسن والقبيح موقفاً وسطاً بين المعتزلة الذين يرون أن العقل يعرف الحسن من القبيح وأنه لذلك مناط التكليف ، وبين السلف الذين يرون أن الشرع هو الذي يحدد الحسن والقبيح وأنه لا تكليف بدون وحي .

فالأشعري يوافق المعتزلة في أن العقل يمكن أن يستقل بمعرفة الله ، ولكنه يأخذ رأي السلف في أن التكليف لا يكون إلا بواسطة وحي .

٢ - خلق الأفعال :

تكلم الأشاعرة عن خلق الأفعال فالتمسوا حلا وسطاً بين رأي المعتزلة الذي يقول بأن العبد يخلق فعل نفسه ولذلك يتحمل مسئوليته . وبين رأي السلف الذي يرد الأفعال كلها لله ويرى أنها مخلوقة له تعالى ، فرأي الأشاعرة أن الفعل وإن كان مخلوقاً لله فإن للعبد قدرة واختياراً في أكثر أفعاله ،

---

(١) ترجمت أفكار الأشاعرة ببعض التصرف رغبة في إيضاح البحث واعتمدت على بعض الكتب الأصيلة في هذا الموضوع .

ويحاسب الإنسان نتيجة الاختيار الخاص الذى يصحب أفعاله الاختيارية ، واستدل الأشاعرة على وجود الاختيار فى بعض الأفعال بما هو واضح من الفرق بين العمل يقوم به النائم أو المجنون أو المكره أو المريض (كالرعشة) أو الخائف «كالرعدة» وبين الأفعال الأخرى التى يضع خطتها ويُعِدُّ العدة للقيام بها ثم ينفذها فعلا .

ولا يوجب الأشاعرة على الله فعل شىء ولو كان الصلاح والأصلح ، لأن الله مختار يفعل ما يشاء ، يثيب بفضله ويعاقب بعدله ، وذلك هو رأى السلف ، وكل ما يضيفه الأشعرى هو إيمانه بحكمة الله وتنزهه عن كل جور .

وهناك مناقشة جميلة فى هذا الموضوع حدثت بين الأشعرى (٩٣٥ م) الذى تنسب له هذه المدرسة الفكرية وبين أستاذه الجبَّائى المعتزلى (٩١٥ م) ، وقد بدأت هذه المناقشة بسؤال وجهه الأشعرى لأستاذه وهذا السؤال هـو :

ثلاثة إخوة : أحدهم يخاف الله ويطيعه ، والثانى لا يعترف بوجود الله ، ومات الثالث طفلا ، فما نصيب كل منهم فى اليوم الآخر ؟

فأجاب الجبائى يدخل الأول الجنة ، ويلقى بالثانى فى النار ، ويقف الثالث على الأعراف لا ينال الجنة ولا يساق إلى النار .

فسأل الأشعرى : ولكن ما الحال إذا كلم الثالث ربه قائلا : رب لو أطلت عمرى لعبدتك واستحققت جنتك ؟

فأجاب الجبائى : يقول له الله تعالى :ماذا لو طال عمرك فعصيت الله واستحققت النار ؟

فعاد الأشعرى يسأل : ولكن ماذا يكون الجواب لو سأل الثانى ربه : لماذا لا تمتنى صغيراً لأنجو من النار ؟

فسكت الجبائى ولم يحر جواباً ، وانفصل بذلك الأشعرى عن المعتزلة وكان من قبل على مذهبهم .

ويتخذ الأشاعرة هذه المناظرة دليلا يردون به على من قال بأن الله يجب عليه أن يفعل الصلاح والأصلح ، ويثبتون به أن الله يفعل ما يشاء خيراً كان أو شراً ، وأن العقل يقصر أحياناً عن فهم بعض الحالات الإلهية .

ويرى الأشاعرة أن الإنسان يصدر فى كل أفعاله عن الإرادة الإلهية التى تخلق كل الأفعال ، فالله يخلق الإرادة والقدرة فى الإنسان ، والله يخلق الفعل عندما يعمله الإنسان ، فإذا أشعل الإنسان النار فإن الله يخلق اللهب ، وإذا ضرب الإنسان إنساناً فإن الله يخلق الألم وهكذا ، وليس الإنسان إلا موضع الفعل ومكانه ، واختيار الإنسان اختيار ظاهرى وهو يسمى الكسب وبسببه تكون المسئولية .

ويتّجه أكثر الباحثين المحدثين إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يكتب على الإنسان أن يفعل الطاعة أو المعصية ، بل عرّفه الطاعة والمعصية ، وأمره أن يفعل الطاعات ويتجنب المعاصى ، ثم فَعَلَ الإنسان باختياره ما أراد ، ويثاب أو يُعاقب على ما فعل ، ولهذا يقول هؤلاء إن الله لم يكتب على المرء أن يفعل كذا وكذا ، بل كتب أنه سيفعل كذا وكذا باختياره ، وكان ما كتبه الله ناتجا عن علم الله الذى يشمل المستقبل كما يشمل الماضى والحاضر.

٣ — مشكلة الصفات :

من أهم المشكلات التى عنى بها الأشاعرة مشكلة الصفات ، وكان طريقهم للكلام فيها ينحو نحو محاولة التوفيق بين رأى السلف ورأى المعتزلة ، فأثبتوا لله صفاتٍ كما رأى السلف ، ولكنهم فسروها تفسيراً معنوياً على

الأشاعرة قمة عالية ، وبين الصوفية علم بارز ، إنه أشبه بالشمس الساطعة التى تختفى النجوم عند ظهورها ، ومن أجل هذا نجد أن ظهور الغزالى فى الشرق قضى على كثيرين من مفكرى عصره ، وامتد سلطان الغزالى الفكرى إلى الغرب ، ولولا أن الغرب كان مشغولا بالفلسفة التى نبعت عن فكر ابن رشد الذى سيجىء الحديث عنه فيما بعد لأصبح للغزالى على الفكر الغربى سيطره أوسع وأثر أعمق .

وقد اشتغل الغزالى عميداً للمدرسة النظامية ببغداد بين سنة ١٠٩٢ وسنة ١٠٩٦ م تم استقال من عمله وأخذ يطوف الأرض باحثاً عن الحقيقة . وانتهى به المطاف إلى طوس مسقط رأسه ، ثم آلزمه السلطان أن يعلم بالمدرسة النظامية بنيشابور ، وبعد فترة استقال وعاد يلزم منزله الذى أصبح معهداً للطلاب وصومعة للصوفية والمتعبدين .

تأثير الغزالى على ديكارت:

ويمكن تقدير فلسفة الغزالى وأفكاره إذا لاحظنا حقيقة مهمة هى أن الغزالى وضع كل الملامح الرئيسية للفلسفة الغربية مبتدئة من Descartes إلى Bergson وقد تحدث Henry Lewis فى كتابه History of Philosophy عن « إحياء علوم الدين » للغزالى فأبرز إلى أى مدى اعتمد الفلاسفة الغربيون على آراء الغزالى فى دراساتهم ، قال: إن هذا المؤلف يحمل العناصر العلمية وطريقة البحث التى ظهرت فيما بعد فى كتاب Descartes :
(Discourse Sur In Methode)

حتى أنه لو وجدت ترجمة آنذاك لكتاب إحياء علوم الدين لاتضح الانتحال أبرز اتضـــاح .

وعلى هذا فالتقارب فى الأفكار بين الغزالى و Descartes يرجع إلى التّرجمات المتعددة لمؤلفات المسلمين قبل ديكارت فقد نفذت فلسفة المسلمين إلى الغرب ، وكان لها سلطان واضح على الفكر الغربى قبل ديكارت بفترة طويلة ، وكان كثير من أفكار الغزالى قد ترجم إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، وكل هذا كان ضمن المعين الذى استقى منه Descartes والفلاسفة اليهود والمسيحيون على السواء ، ودليل ذلك أن فلسفة الغزالى وآراءه قد انعكست على الفلاسفة الغربيين قبل Descartes بزمن طويل ، فنظرية الشك للغزالى تبرز بوضوح فى مؤلفات Jehuda hal-Levi (١١٤٥م) وفى أفكار Grescas (١٤١٠ م) وانتفع Raymond Martin[1] بترجمة عبرية لكتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، وتسربت أفكار الغزالى إلى كثيرين غير هؤلاء مثل Pascal الذى تبرز فى مؤلفاته أفكار الغزالى وفلسفته ، ومثل St. Thomas الذى تلقّى دراسته بجامعة نابلى بتوجيه الكنيسة ، واستعمل فيما بعد أسلوب الغزالى ومناقشاته فى مهاجمة أفكار أرسطو اللاتينية على نحو ما فعل الغزالى نفسه .

وكل هذا يؤكد لنا أن الالتقاء بين أفكار ديكارت وأفكار الغزالى لم يجىء عفواً ، وإنما هو نتيجة طبيعية لتعرف الأول على أفكار الثانى خلال التّرجمات المتعددة ، وعن طريق الكتاب الغربيين الذين سبقوا Descartes فى الاقتباس من الغزالى ، وسنلم فيما يلى بنظرية الشك عند الغزالى ، تلك النظرية التى تبعها ديكارت تقريباً واقتفى أكثر خطواتها (١) :

---

(١) جاءت التّرجمة فى الفقرات التالية بشىء من التصرف . فقد اقتبست من مؤلفات الغزالى وبخاصة كتابه « المنقذ من الضلال ص٣ وما بعدها » ما يزيد إيضاح هذه المسألة التى وردت مقتضبة فى الأصل الإنجليزى كما وضحت اتجاه ديكارت وفلسفته عن الشك مما كتب عنه فى المظان المختلفة . (المترجم)

يقول الغزالى إن التعطش إلى درك الأمور كان رأيَهُ وديدنه من أول عمره ، غريزةٌ وفطرة من الله ، وضعها فى جبلته من غير اختيار منه ، فلم يسيطر عليه تقليد لرأى سبقه ، ولا شملته عقيدة موروثة ، بل أراد أن يصل إلى المعرفة ببحثه هو ، وأن يحصل على اليقين بخالص فكره .

وظن الغزالى أن الحسيات والضروريات العقلية هى أهم ما يكسبه العلم اليقينى ، ولكنه سرعان ما فقد الثقة فى الحسيات ، إذ تبين له الوهم والخداع فيها ، فالعين مثلا ترى الظل ساكناً وهو فى الحقيقة متحرك ، وترى النجم صغيراً وهو فى الحقيقة كبير ، والذى أفقده الثقة فى الحسيات هو العقل .

بقى لدى الغزالى من وسائل العلم اليقينى الضروريات العقلية ، ولكنه شك فى هذه أيضاً . وهو يقول فى ذلك « ولعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلى كذَّب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته » .

وتأيَّد شكُّه فى الضروريات العقلية بالرؤى التى يراها فى نومه ويعيش فيها فترة من الزمن « ويتفاعل » معها ثم لا يلبث أن يتيقظ فتذوب هذه الرؤى وهو يقول فى ذلك : فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحسٍ أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك ، ألا يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ؟ » .

وإذا سقط الاستدلال بالحسيات والضروريات العقلية فإنه لا أمل فى الثقة فى شىء آخر ليُستَدَلَّ به ، وبهذا قوى الشك عند الغزالى واشتدَّ داؤه ، وظل على ذلك حوالى الشهرين ، فكان كما يقول « على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » .

ثم شفاه الله من هذا الداء ، وعاد إليه اليقين بالضروريات العقلية ، وهو يصف الدواء كما وصف الداء فيقول « ولم يكن شفائى بنظم دليل . وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة » .

وعاد الغزالى بعد ذلك يدرس مذاهب الآخرين وأفكارهم ، وهو يقول فى ذلك « أخذت استكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فيلسوفاً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الإطلاع على غاية كلامه ومحاولته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر تصوفه ، ولا متعبدا إلا وأترصّد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطّـلا إلا وأتجسس وراءه لمعرفة أسباب جرأته فى تعطيله وزندقته » .

ولم يجد الغزالى اليقين إلا عند الصوفية ، فعرف أنهم أحسن الناس علماً وأزكاهم عملا .

ويتفق ديكارت مع الغزالى فى بعض هذه الخطوات الفكرية عن الشك فهو يرى « أن أنواع الوجود مشوبة بأوهام كثيرة وأخطاء لا حصر لها ، ولا سبيل لأن نصل فيها إلى يقين ثابت إلا إذا نبذنا ما ألفناه من أفكار ، وما درجنا عليه من آراء ، فنحن مضطرون لأن نشك فى كل شىء لأن الحس يخدعنا والحقائق العامة التى ندّعيها معرضة لتأثير المخيلة والوهم ، بل أكثر من ذلك نحن نخطىء فى البرهنة والاستدلال ، وما جاز عليه الخطأ زال عنه اليقين ، ومن يأسرينا أن ليس هناك روح خبيث يخدعنا دائماً فيصور لنا الباطل حقاً والحق باطلا ؟ » .

وقد وصل الشك بكليهما إلى درجة بعيدة أوشكت أن تصل إلى شك كل منهما فى وجوده ، وكانت عودتهما إلى اليقين عند درجة متقاربة ، فالغزالى عاد إلى اليقين بالفكرة التى عبر عنها بقوله : أنا أرغب فأنا موجود . واقتفى ديكارت أثر الغزالى فى ذلك أيضاً ، فالفكرة التى عاد بها إلى اليقين يعبر عنها بقوله : أنا أفكر فأنا إذاً موجود .

ويتفق الغزالى وديكارت فى أن الشك عند كليهما لم يكن للهدم ، وإنما كان وسيلة للمعرفة والوصول إلى الحقائق .

وديكارت وتلميذه اسبينوزا يتبعان رأى الغزالى فيما يتعلق بصفات الله وصلتهما بذاته ، فذات الله عندهم واجبة الوجود ولا يحتاج تعالى إلى علة توجده ، وهو عند اسبينوزا جوهر لا نهائى ، له أعراض (Attributes) لا نهائية ، والجوهر (Substance) الذى يتحدث عنه اسبينوزا قريب الشبه بالله الذى يتحدث عنه الغزالى ويكاد اسبينوزا يثبت للجوهر نفس الصفات التى يثبتها الغزالى لله ، مما يوحى بالاقتباس والاقتداء .

الغزالى ومصادر المعرفة :

وللغزالى مذهب فى مصادر المعرفة يعتبر المنار لكل الفلاسفة الذين جاءوا بعده فى الشرق والغرب ، وقد اغترف هؤلاء الفلاسفة كل بقدر طاقته من نبع الغزالى ، وخلاصة رأى الغزالى أن التجربة هى وسياة المعرفة ، وتشمل التجربة عند الغزالى جوانب الحس والعقل والروح ، أى تشمل التجربة التى يدركها الإنسان بحواسه ، وكذلك تلك التى يمارسها بعقلة ، كما تشمل التجربة التى ترد إليه عن طريق الفيض دون خضوع إلى قوانين كالمعرفة التى تحصل للأنبياء والقديسين والصوفية بلا تجربة حسية ولا عقلية .

ومذهب الغزالى هذا كان معيناً اغترف منه الفلاسفة الغربيون كل

بحسب مقدرته كما قلنا ، فاتجه لوك Locke إلى المذهب الحسى ، ورأى أن الحواس هى وحدها وسيلة المعرفة ، والعقل تابع لها متأثر بها ، ومما أثر عنه قوله : « لا شيء فى العقل لم يكن قبل ذلك فى الحواس » .

واتجه كانت Kant إلى أن العقل وحده هو وسيلة المعرفة ، لأن الحواس موجودة عند الحيوان دون أن تؤدى إلى المعارف .

أما الاتجاه الروحى فلم يبلغ درجة النضج عند الأوربيين وإن كان برجسون Bergson قرب منه حينما تحدث عن المعرفة عن طريق الحدس والبديهة والوجدان .

وتمتاز نظرية الغزالى فى أنها حلت مشكلات لم تحلها اتجاهات الفلاسفة الغربيين ، فوجود الله ، وطبيعة صفاته ، ومسألة الروح والعالم ، استطعنا أن نعرفها بيسر عن طريق الأنبياء والقديسين . وقد ظلت أوربا تسير على منوال الغزالى عهداً طويلا ، أما فى الشرق فقد هزت أفكار الغزالى جميع الأفكار ولا تزال قوية حتى العهد الحاضر بحيث لا تستطيع أن تولد بجانبها أفكار أخرى .

٢ – الصوفية

الصوفية هم المدرسة الثانية من مدارس الفكر الإسلامى بعد المعتزلة والأشاعرة اللذَيْن يُعَدّان شعبتين المتكلمين.

والصوفية المسلمون جماعتان :

١ – جماعة آمنت بوحدانية الله وأنه خالق العالم .

٢ – جماعة قالت بوحدة الوجود ، رافضة فكرة خلق العالم من العدم ، مثبتة أن الكون مظهر الله الخارجي ، وأنه موجود من البدء ، صادر عن الله راجع إليه ، وليس ثمة فارق بين الذات والصفات ، أى بين الله والكون . وبناء على هذا المذهب تتجلى الألوهية فى البشر ، ويعتبر محمد الإنسان الكامل .

والباحث يجد فى القرآن الكريم وفى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بذوراً هامة للتصوف (١) ، ومع هذا فقد تأثر بعض المتصوفين المسلمين بفلسفات غير إسلامية كالأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية والغنوستية (عقيدة مذهب المعرفة عند اليونان) . وبعض الاتجاهات المسيحية ، وكثير من الفلاسفة كانوا بلا شك متأثرين بالأفكار الزرادشتية والمانوية والهندوكية والبوذية .

---

(١) اقرأ مثلا قوله تعالى :« التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين» التوبة ١١٢ .

ويرى الصوفية المسلمون أن الوحى هو المصدر الوحيد لمعرفة الله ، ولكنهم مع هذا اهتموا اهتماماً كبيراً بالصفاء النفسى ، لتستطيع النفس أن تتلقى بيسر ما يجىء به الأنبياء على طريق الوحى ،ويعتبر الغزالى حلقة الاتصال بين الصوفية والأشاعرة كما سبق القول ، فقد كان أشعريا وصوفياً فى نفس الوقت ، فاعتبر من القادة هنا وهناك .

ويتفق الصوفية المسلمون مع جميع الصوفية فى العالم فى أن الصفاء النفسى ينال بطريق واحد هو حب الله والتأمل فى صنعته . وفى أن الصفاء النفسى هو الوسيلة للوصول ، وبدونه لا يتحقق القبول ، وبدونه كذلك لا يعتد بصالح الأعمال .

ونذكر فيما يلى أشهر الصوفية المسلمين.

على بن أبى طالب (٦٦١ م) وربيعة البصرى (٨٠١ م) ومعروف الكرخى (٨٢١ م) وبايزيد البسطامى (٨٧٤ م) وإبراهيم بن أدهم (٨٧٥م) والجنيد (٩١٠ م) وحسين بن منصور الحلاج (قتل سنة ٩٢٢ م) وأبو بكر الشبلى (٩٤٦ م) والقشيرى (١٠٧٢ م) وعبد القادر الجيلانى (١١٦٦ م) وشهاب الدين السهروردى (قتل سنة ١١٩١ م) وفريد الدين العطار (١٢٢٩ م) وابن عربى (١٢٤٠ م) والرومى (١٢٧٣ م) والشبسترى (١٣٢٠ م) وخواجة بهاء الدين (١٣٨٨ م) وعبد الكريم الجيلى (١٤٠٦ م) وجامى (١٤٩٢ م) .

ومن أشهر متصوفة الهند عبد المحسن على بخش (١٠٧٢م) ومعين الدين شيستى (١٢٣٤ م) وبختيار كاكى (١٢٣٦ م) وفريد الدين شكر (١٢٦٥ م) ونظام الدين عليا (١٣٢٤م) وأحمد سر هندى (١٦٢٤ م) .

والصوفية الأولون كانوا من الطبقة الأولى من طبقتى الصوفية أى كانوا يرون أن الله خالق الخلق ومبدعه من عدم ، ومنذ عهد بايزيد

البسطامى اتضح الميل نحو مذهب الطبقة الثانية وهو القول بوحدة الوجود وظهر هذا الاتجاه واضحاً عند الحلاج والقشيرى وشهاب الدين السهر وردى وابن عربى وعبد الكريم الجيلى ، وهؤلاء الذين وضعوا أساس الفكر الإسلامى فى التصوف .

ويعتبر الرومى (١٢٧٣ م) من أشهر شعراء الصوفية المسلمين وأعمقهم فكراً ، ويسميه Hegel : الشاعر العظيم ، ويعتبره إقبال أستاذه الروحى ، وللرومى قصيدة طويلة فى التصوف اسمها « المثنوى » وقد ترجمها بروفسور نيكلسون إلى الإنجليزية ، وكتب عنها بروفسور حكيم كتاباً شاملا ، و « المثنوى » من أهم الدراسات الصوفية التى دونها المتصوفون المسلمون (١) وبالإضافة إلى هذه القصيدة الشاملة هناك دراسات أخرى عن التصوف الإسلامى كتبها قادة الصوفية ، وأهم هذه الدراسات (كتاب اللمع فى التصوف) لأبى نصر السراج (٩٨٨ م) و (كشف المحجوب) لأبى الحسن على (١٠٧٢ م) و (الرسالة القشيرية) للقشيرى ، (وإحياء علوم الدين) للغزالى ،و (عوارف المعارف)لشهاب الدين السهروردى ، و (منطق الطير) لفريد الدين العطار ، و (الفتوحات المكية) و (نصوص الحكم) لابن عربى ، و (الإنسان الكامل) لعبد الكريم الجيلى ، و (اللمعات واللوامع) للجامى .

وفيما يلى كلمة إجمالية عن الاتجاهات الصوفية فى الإسلام :

الله :

الله هو الحقيقة العظمى التى لا تتغير ، مدبِّر الأمر ، وينسب الصوفية

---

(١) سنورد اقتباسا منها فيما بعد عند الكلام عن « ابن مسكويه » .

صفة الوحدة لله ، أى أنه واحد لا إله سواه ، وله كذلك صفة الوحدة فى التركيب أى أنه ليس مكوناً من أجزاء ، ولا يمكن تعريفه والإحاطة به .

تلك هى المعالم التى يتفق فيها كل الصوفية تقريباً ، ثم تتشعب اتجاهاتهم ، على أن أكثرهم يرى أن الله جمال وكمال ، ويراه بعضهم إرادة ، ويراه آخرون نوراً ، وتُبْرِز جماعة منهم فيه صفة العلم فيرونه عِلماً ، ويتزعم البلخى وإبراهيم بن آدم وربيعة البصرى وغيرهم الاتجاه الأول ، ويتزعم الحلاج الاتجاه الثانى ، ويتزعم شهاب الدين السهروردى التفكير الثالث ، ويقف ابن عربى فى قمة من نادوا بالاتجاه الأخير .

وصفات الله ذاته ، أى أنها مظاهر ذاته ، وهى انبثاق من الوحدة المقدسة أو انعكاس لها ، وبواسطتها تحدث ظواهر العالم .

ولما كان العالم انعكاساً للحقيقة الإلهية ، ولما كانت الأشياء انبثاقاً من ذات الله التى هى كمال وجمال ونقاء ، فالأشياء أيضاً كاملة وجميلة ونقية ، وإن اختلفت درجات هذا الكمال والجمال بنسبة قربها وبعدها من مصدرها .

الـــروح :

وروح الإنسان انبثاق من الله كانبثاق الشعاع من الشمس ، ومن الواضح أن الشعاع قبل أن يصبح شعاعاً كان يكوّن مع الشمس وحدة واحدة ، فكذلك الروح قبل أن تنبثق عن الله كانت جزءاً منه ، واتحاد الأرواح بالأجسام اتحاد غير طبيعى ، وهو كاتحاد الضوء المنبعث من الشعاع مع

ذرات الرمال ، وبواسطة هذا الاتحاد تعطى الأجسام مظهراً يختلف تماماً عن مظهرها قبل اتحادها مع الأرواح ، والإنسان هيكل مصغر للعالم كله ، وأسهمت صفات الله المقدسة كلها فى خلقه ، ولكن بصورة غير كاملة ، وعلى هذا فللإنسان مكانة فريدة .

والإنسان غير مستقر ، لأنه دائم الحركة والجهد رجاء أن يعيد وحدته مع مصدره . وهده الحركة وهذه الرغبة هى الحب ، والحب هو فحوى الأديان ، وعلى هذا فالباحث عن الله لا يجده فى البيعة أو الكنيسة أو المسجد وإنما يجده فى القلب .

والهدف الوحيد الجدير بالحب هو الله الذى يعبرون عنه بأنه الجمال المقدس ، وللوصول إليه يجب على الصوفى أن يربى نفسه على حب ألوان الجمال فى العالم ، وأن يتأملها ويفكر فيها بعمق لأنها مظاهر الذات المقدسة ، ولأنها درجات توصل لهذه الذات ، وحب الإنسان للجمال يرضى الله لأنه المصدر الأساسى لكل أنواع الجمال . ويمضى المتصوف فى هذا الطريق صاعداً إلى المحبوب وسيعبر خلال رحلته إلى الله درجات متعددة وسيبعد الشر عن نفسه ، ويتخلق بأحسن الصفات بطبيعة الحال . وكل هذا سيدفعه إلى الجمال التام ، والكمال الذى ليس بعده كمال ، ثم تختفى صفاته رويداً رويداً ويتم اتحاده مع الله .

والجنة هى فرط السرور بالاتحاد مع الله أو القرب منه ، والنار هى الألم المنبعث نتيجة الانفصال عنه أو البعد عنه ، ويرحب الصوفى بما يلاقيه من عناء وسوء حظ لاعتقاده أن هذا كله من المحبوب .

الشيخ والمـريد :

ولتحقيق الاتحاد مع المحبوب يلزم أن ينهج الإنسان نهج ذلك المحبوب ، وأن يحاول أن ينتحل صفاته ويتخلق بها ، وللوصول إلى هذه الغاية يحتاج المريد إلى قائد بوجهه ، وتكون طاعة المريد لقائدة شاملة وواجبة ، والطريق إلى الحب لا يخضع للمنطق والأسباب والمسببات العامة . ولهذا لا يثار سؤال عمن وصل أو تأخر فى الوصول ، ومع هذا فالقائد غير الصالح يضلل المريد بدل أن يصل به ، ولذلك لزم أن يعنى المريد عناية كاملة باختيار شيخه ومرشده .

وكلما قربت أخلاق الإنسان من الكمال زاد قربه من الله ، فإذا تم تخلقه بصفات الله وإنماعتْ صفات الله فى الإنسان ، وأحكم الامتزاج بها ، أصبح الإنسان فى وحدة مع الله ، وصار مظهراً من مظاهره .

أما الصوفية الذين قالوا بتوحيد الله وأنه خالق العالم فلم يقولوا بالاتحاد به ، ولكنهم قالوا بالفيض من الله أو بالقرب منه ، وقرروا أن الصوفى إذا انعزل عن إرادته الخاصة ، أو ذهل من فرط السرور الحاصل من زيادة القرب وصل محيط دائرة الله وغمرته الصلة به ، فخلا من كل شىء وتفرغ له ، وتعرف هذه اللحظة عند هؤلاء الصوفية بلحظة الوصول أو الفناء ، ويكون الصوفى خلالها — على الرغم من أنه يبدو مذهولا — يقظ العقل والضمير والروح ، فإذا بدا للناس فاقداً حواسه فإنه عند نفسه لم يفقدها بل يصير فى حالة أسمى وأروع ، وكل ما حدث له هو أن هذه الحواس أصبحت — لفيض الصلة — كالنور المنبعث من النجوم إذا أشرقت الشمس ، فإن هذه

النجوم ، وإن ظلت فى المواقع المتلألئة إلا أن وهج الشمس يحجبها عن العيون أو يحجب العيون عنها ، وسرعان ما تنتهى هذه اللحظات ويعود الصوفى إلى حالته الطبيعية .

تأثُّر التصوف الإسلامى وتأثيره فى الشرق والغرب :

وقد سبق القول إن التصوف الإسلامى تأثر باتجاهات غير إسلامية ، وذكرنا منها الثقافة الهندوكية والبوذية ، ويوضح جولدزيهر أن بعض الاصطلاحات التى عرفت فى التصوف الإسلامى قد وردت للتفكير الإسلامى من هذه الثقافات ، وذلك مثل الفناء ، والطريقة ، والمراقبة والكرامة ، وإذا كانت الهندوكية قد أثرت بعض الشيء فى التصوف الإسلامى ، فإن التصوف الإسلامى كان بدوره عميق التأثير فى الحياة الهندية وكان كذلك متعدد الجوانب ، فقد تسربت بقصد أو بدون قصد أفكارٌ هامة من التصوف الإسلامى إلى الفلاسفة الهنود وإلى الزعماء الروحيين بالهند وعن طريق هؤلاء وصلت هذه الأفكار إلى الجماهير الهندية ، وعن ذلك يقول Ramaswami Sastri (راما سوامى ساسترى) :

إن تأثير التصوف الإسلامى فى الفكر الهندى جدير بالذكر ، فقد تسلل بهدوء ويسر إلى الهند حتى وصل إلى كل عقل واختلط بكل لب ، وقد تأثرت الأفكار الدينية فى الهند بالعقائد الصوفية الهامة كالاتحاد ، ومجد الله ، والأخوة الإنسانية ، والحب .

وقد درس الدكتور Tara Chand هذا الموضوع دراسة أوسع وأشمل فى كتابه :

Influence of Islam on Indian Culture

ومنه نقتبس الفقرات التالية (١) :

« إن الاتجاه للتوحيد الذى ظهر واضحاً فى جنوب الهند لم يظهر إلا بقوة دفع قاهرة ، كان مصدرها التفكير الذى لا يقبل مساومة فى مسألة وحدانية الله ، وهو التفكير الإسلامى .

« ولقد ولد القديس Sankara فى الفترة التى بدأ المسلمون فيها نشاطهم الدينى بالهند . وقد صادف المسلمون آنذاك نجاحاً ملحوظاً . إذ استطاعوا أن يقنعوا سلطان هذه المنطقة باعتناق الإسلام ، وكانت نشأة Ssnkara فى مكان ساحلى ، حيث كانت ترسو السفن التجارية القادمة من بلاد فارس ، فإذا كانت دعوته القوية للوحدانية بين القائلين بالتعدد ، ومحاولته أن يفرض التوحيد فى شرحه للكتاب المقدس ، ورغبته أن يطهر الصلوات مما بها من تقاليد تخالف اتجاهه ، إذا كان ذلك صدى للآراء الدينية الإسلامية فإن هذا لا يدعو للدهشة أو الريبة .

« وخلفاء Sankara وهم Ramanuia و Vianuswamı و Madhava و Nımbaraka ، والذين يتلون التراتيل ، كل هؤلاء كانوا قريبى الشبه بالمسلمين فى تأملاتهم وأنغام تراتيلهم .

« وفى عهد Ramanuîa كثر المسلمون فى موانى شاطىء كورومونديل ، وكان الدعاة المسلمون من أمثال Nathad Vali يدعون الناس للإسلام ويجذبون بعضهم لاعتناقه ، وفى نفس الوقت كان الملوك الهنادكة مثل Kun—Pandya يمنحون الأرض لتُقام عليها المساجد .

---

pp 111 – 112 (1)

« وقد أفصحت فلسفة Ramànuîa عن الاعتراف بإله واحد موصوف بأكرم الصفات ، يطلب أن يعبد بإيمان وإخلاص ، وعرض Ramanula أن يفتح أبواب الدين لكل الطبقات حتى للطبقة التى ما كانت تفتح لها أبواب الأديان كالمنبوذين .

« والحب الذى تكلم عنه الصوفية المسلمون وجد طريقه للفكر الهندى ولم يكن مقصوراً على حب الإنسان لله ، بل امتد إلى حب الإنسان للإنسان وكان القديسيون الهنود الذين ذكرنا أسماؤهم آنفاً عندما يثيرون المناقشات العقلية التى تتصل بطبيعة الإله يستعملون نفس الحوار الذى أُثِر عن النظّام والأشعرى والغزالى .

« وحفلت الأفكار الدينية بجنوب الهند ابتداء من القرن التاسع الميلادى باتجاهات تشير كلها إلى نفوذ الفكر الإسلامى ، وأهم هذه الاتجاهات التوحيد ، وبروز العاطفة والانفعال فى العبادات ، والاستسلام للشيوخ المعلمين واحترامهم احتراماً يصل للعشق أو التقديس ، وبجانب ذلك وضح فى الاتجاهات الدينية الهندية تساهل كبير فى نظام الطبقات ، وتطور ظاهر فى الطقوس الدينية » .

وامتد نفوذ التصوف الإسلامى بشكل أوضح وأعمق فى شمال الهند ، فظهر فى علماء الدين هناك أمثال Dadu و Nanak و Ramananda و Kabir و Birbhan و Baba Lal وكثيرون سواهم ، ومثل ذلك التأثير ظهر أيضاً فى البنغال ، ودان به Namdev و Maharasltra من مشاهير القديسين

ولم يمتد نفوذ التصوف الإسلامى إلى الشرق فقط بل امتد كذلك إلى

الغرب فظهرت أصباغ التصوف الإسلامى واضحة فى التصوف الأوربى ، وقد كتب المستشرق الأسبانى Migvel Asim فى كتابه :

Islam And the Divîne Comedy

(الإسلام والكوميديا الإلهيه) أن دانتى (Dante) مدين فى أكثر ما كتبه عن اليوم الآخر فى رواية الكوميديا الإلهية The Dîvine Comedy إلى ابن عربى . وقرر الأستاذ الدكتور أرثر أربرى فى كتابه « تاريخ التصوف » أن من المستحيل أن تقرأ أشعار St—Jobn المتصوف الأسبانى دون أن تعلن أن طريقة تفكيره واتجاه خيالاته ترجع كلها إلى الصوفية المسلمين الذين كانوا مواطنين بأسبانيا وتركوا بها هذا التراث .

ويعلق الدكتور أربرى على ما كتبه Ràymond Hull عن التصوف فى القرن الرابع عشر ، فيقرر أن هذا الكاتب كان يجيد اللغة العربيه ، وقد افتتح مدرسة للغات الشرقية فى روما ، وإجادته للغة العربية مكنته من الاتصال بالتصوف الإسلامى ، فجاء كتابه عن التصوف عميق التأثر — دون شك — بالتفكير الصوفى الإسلامى ، وحَمَلَ هذا الكتاب مع غيره اتجاهات المسلمين الصوفية إلى أوربا .

وبعد بضعة قرون صار الشعر الصوفى الفارسى عميق التأثير على عباقرة المفكرين الغربيين كجوته وسواه وليس ذلك التأثير محتاجاً إلى دليل .

٣ ـ الفلاسفة

نجيء الآن للمدرسة الفكرية الأخيرة عند المسلمين وهى مدرسة الفلاسفة ، ويمكن القول بحق إن الفلاسفة المسلمين أحيوا حكمة اليونان وعلومهم بعد أن شملها الموت أو كاد . وعن طريقهم وصل التراث اليونانى إلى الشرق وإلى الغرب . وأشهر الفلاسفة المسلمين الكندى (٨٧٣ م) والفارابى (٩٥٠ م) وابن مسكويه (١٠٣٠ م) وابن سينا (١٠٣٧ م) وابن الهيثم (١٠٣٩ م) وابن باجة (١١٣٨ م) وابن طفيل (١١٨٥م) وابن رشد (١١٩٨ م) .

ولم يقصر أكثر هؤلاء دراساتهم وكتاباتهم عن الفلسفة ، بل كتبوا فى موضوعات كثيرة غيرها كما فعل المتكلمون ، فالكندى مثلا كتب فى علم الفلك والهندسة والتنجيم والحساب والموسيقى والطبيعيات وعلم النفس وعلم الظواهر الجوية وعلوم السياسة ، وكتب ابن سينا فى اللاهوت والرياضيات والفلك والطب والسياسة والحيوان والنبات ، وكتب ابن رشد فى الفقة والطبيعيات والفلك والطب .

وعلى العموم فقد كان جل ما عنى به الفلاسفة المسلمون أول الأمر هو التوفيق بين التفكير الإسلامى وبين فلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة ، ومحاولة خلق فلسفة تلتقى فيها هذه العناصر ، وتزعم الكندى والفارابى وابن سينا هذا الاتجاه مع اختلاف فى ميول هؤلاء ؛ فالفارابى مثلا كان أكثر ميلا لفلسفة أرسطو ، ومال ابن سينا للأفلاطونية الحديثة ولم يثمر هذا الاتجاه الثمرة المرجوة ، فعدل عنه الفلاسفة المتأخرون واتجهوا إلى عزل الدراسات اللاهوتية عن الدراسات الفلسفية .

ومصدر المعرفة عند الفلاسفة هو العقل والوحى جميعاً .

وفيما يلى دراسة موجزة لأهم الفلاسفة المسلمين ولآرائهم :

الكندى

٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م

يعرف الكندى بأنه دائرة معارف ، لكثرة الموضوعات التى كتب فيها والكتب التى دونها ، فيروى أنه كتب ٢٥٦ كتاباً فى عدة موضوعات والكندى أول فيلسوف رأى ضرورة الاستعانة بالرياضيات فى حل المسائل الفلسفية ، وينسب إلى ديكارت خطأ أنه كان أول من اتجه هذا الاتجاه ، وقد كتب الكندى كتاباً كاملا ليبرهن على صحة هذه النظرية ، ولكن تطبيقه لهذه النظرية فسد لسوء الحظ بسبب نفوذ المدرسة الفيثاغورية .

وللكندى كتاب فى علم البصريات يعتبر عمدة فى موضوعه ، وقد كان مرجعاً هاماً للباحثين فى هذا العلم بالشرق والغرب على السواء ، وقد أبدى بيكون (Roger Bacon) وكاردان (Cardanus) عظيم الاهتمام بأبحاث الكندى وأفكاره ، ووافقه كاردان على قوله بوحدة العالم وارتباطه ، بحيث أننا لو عرفنا جزءاً منه معرفة تامة كان لنا منه مرآة ينعكس فيها العالم كله فتحصل لنا معرفة بالجميع .

نظرية الكندى فى المعرفة :

وللكندى فى المعرفة نظرية لا تزال مدرسة كانت (Kant) تعنى بها حتى الآن ، فهو يرى أن مصادر المعرفة هى الحواس والعقل والخيال ، فالحواس تدرك الجزئيات والصورة المادية ، والعقل يدرك الكليات والصورة

العقلية ، أما الخيال فوسط بين الاثنين ، أى أنه يدرك الجزئيات الكلية (The Universal Partîcular) وقد كان يظن حتى عهد قريب أن (كانْت ١٨٠٤ م) هو الذى جعل الخيال وسطا بين الحواس والعقل ، ثم ثبت أن فلاسفة آخرين سبقوا (كانت) فى تقرير هذه المسألة ، وهؤلاء الفلاسفة هم :

Addîson (١٧١٩ م)

Muraturi (١٧٥٠ م)

Lord Kames (١٧٨٢ م)

ولكن الحقيقة أنه لا (كانت) ولا هؤلاء الفلاسفة هم الذين ابتكروا هذه المسألة ، بل يرجع الفضل فى ابتكارها إلى الكندى الذى عاش قبل (كانْت) بحوالى تسعة قرون .

الفـارابى

٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م

أعظم فيلسوف مسلم ، لم يصل إلى مكانته فى الفلسفة الإسلامية أى فيلسوف آخر ، ولهذا عرف فى تاريخ الفكر بأنه « المعلم الثانى » أما المعلم الأول فهو أرسطو . ويعترف المفكرون المتأخرون بأنهم مدينون له فيما وصلوا إليه من علم ومعرفة ، وأثره واضح تمام الوضوح فى أفكار ابن سينا وابن رشد ، ويقول Carra de Vaux : إن منطق الفارابى كان عظيم التأثير على الباحثين الأوربيين الذين عنوا بالمنطق .

وقد كتب الفارابى أكثر من مائة كتاب نصفها تقريباً نقد وشروح

وتعليقات على أبحاث آرسطو ، وأما الباقى فدراسات مبتكرة ، وهناك حوالى خمسة وعشرين كتاباً من كتب الفارابى لا تزال مخطوطة أو مدونة فى رقاع .

والفارابى زعيم أصحاب المنطق ، وهم أصحاب ما وراء الطبيعة ، وسمى هؤلاء بأصحاب المنطق لأنهم ساروا سيرتهم فى استنباط الأشياء من أصولها على طريقة برهانية دقيقة ، وذلك بوضع القواعد الكلية والاستنباط منها بالبرهان .

ومدرسة الفارابى هذه تختلف عن مدرسة الطبيعيين الذين يوجهون اهتمامهم إلى دراسة ما فى الطبيعة من ظواهر مادية ، فإذا تكلموا عن الله تكلموا عنه كصانع خالق أو كما يسمونه العلة الأولى ، أما الفلاسفة المنطقيون فيتكلمون عن ماهيات الأشياء وحقائقها من أدناها إلى ذات الله ، وإذا تكلموا عن الله تكلموا عنه كموجود واجب الوجود .

فالمنطق عند الفارابى ليس وسيلة لإدراك المعرفة ، وإنما هو الحصول على المعرفة ، وهو ليس طريقاً لإدراك الحقائق ، وإنما هو نفس إدراك الحقائق .

برهان الفارابى للتدليل على وجود الله :

وقد أضاف الفارابى وتبعه ابن سينا برهاناً جديداً للتدليل على وجود الله ، وقد بُنِىَ هذا البرهان على فكرة الممكن والواجب، فقال إن كل موجود إما ممكن الوجود أو واجب الوجود ، وممكن الوجود لابد من علة تتقدم عليه ترجِّح وجوده وتقرِّره وتخرجه إلى الوجود ، والعلل هذه لا يمكن أن تتسلسل إلى مالا نهاية بل لابد أن تنتهى إلى موجود واجب الوجود لا علة لوجوده . وقد أخذ الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون هذا الدليل عن

ابن سينا ، وعن ابن ميمون أخذه القديس توماس الأكويني ، وسار في الغرب حتى تدارسه الفيلسوف (كانت) .

والفارابي أول من قال بأن الحركة ظاهرة لا تفارق الأجسام ، فهى جزء لا يختلف عنها ، وتلك النظرية جعلت الفارابي ذا صلة وثيقة بالدراسات الفلسفية الحديثة ، ويفرق الفارابي بين الذات والوجود ، وقد كان لهذا الرأى أثر كبير فى فلسفة الشرق والغرب ، فوجود شيء — تبعاً لرأى الفارابي — ليس إلا الشيء نفسه ، ولهذا لا يصح أن يسند إليه لأن المسندات عامة شاملة ، والوجود خاص ، وبهذا يختلف الوجود عن الذات .

وقد وضع الفارابي ما يمكن أن يسمى « أول دائرة معارف » بكتابه « إحصاء العلوم » الذى يراه الأستاذ مصطفى عبد الرازق أول موسوعة وضعت فى العالم .

ابن مسكويه (*)

٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م

كان ابن مسكويه طبيباً وفيلسوفاً ومؤرخاً ، ومن آرائه الفلسفية فى ماهية النفس أن النفس جوهر بسيط لا نحسّه بالحواس ، وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ، بدليل أنها تقبل الصور المتناقضة كالبياض والسواد فى وقت واحد بخلاف الأجسام ، والنفس كذلك تقبل صور المحسوسات والمعقولات على السواء ، وعلى هذا فمعارف النفس ووسائلها للمعرفة أفسح

(*) اسمه مسكويه واسم جده مسكويه كذلك. ولهذا يقال له مسكويه وابن مسكويه

وأعمق من الجسم، وفى النفس معرفة عقلية أولية لا تصل لها عن طريق الجسم ؛ كما أنها تستطيع آن تميز المعارف التى ترد إليها عن طريق الحواس فتدرك الصحيح منها والخطأ ، وذلك عن طريق المقارنة بين المدركات الحسية ، فهى بهذا تشرف على عمل الحواس وتصحح خطأها . وللنفس وحدة روحية تجعلها تعلم أنها تعلم ،وهى وحدة تقرر أن الذى يعقِل والذى يُعْقَل شىء واحد (١) .

نظرياته الخلقية :

وأهم ما عرف به ابن مسكويه نظرياته الخلقية وسعيه ليحصل الإنسان على الخلق الجميل عن طريق تعليمى يعرف به ماهية النفس واتجاهاتها ، ثم نظريته عن النشوء والارتقاء ، وسنورد بعض التفاصيل التى توضح لنا فلسفات هذا الباحث الكبير .

الأخلاق عند ابن مسكويه :

والأخلاق فى نظر ابن مسكويه هى ما يلائم المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان ، ولا يستطيع الإنسان إذا تُرِكَ وحده أن يعرف الأخلاق الطيبة جميعها والإنسان مندفع بطبعه إلى الحياة الاجتماعية ، والحياة الاجتماعية تستوجب الأنس ، ومنه سمى الإنسان إنسى لأنه يأنس بالاجتماع ويحس بوحشة إذا كان وحيداً . والحياة الاجتماعية تستلزم التعاون بين الناس والتعاطف والحب . وعلى هذا فالفضيلة الرئيسية التى يلزم أن يعتنقها الإنسان وينميها هى فضيلة الحب للجنس البشرى .

---

(١) انظر كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه فى صفحاته الأولى .

الصداقة بين الأنانية والإيثار :

ويختلف ابن مسكويه مع أرسطو فى تحديد هدف الصداقة ، فأرسطو يرى أن الصداقة امتداد لحب الإنسان لنفسه ، ويرى ابن مسكويه أنها تضييق لدائرة حب الذات ، فأرسطو يراها أنانية لأن الإنسان تزيد سعادته بحبه للآخرين ، لأن الأصدقاء يحبُّون الإنسان ، فالصداقة ستحيط الإنسان بقلوب تحبه وتعمل لإسعاده ، ويراها ابن مسكويه إيثاراً لأنها توجيه بعض غريزة الحب إلى الناس بدلا من أن يركزها الإنسان فى نفسه ، ومن الواضح أن الصداقة كما عناها أرسطو نفعية . ولكنها عند ابن مسكويه لذة ذاتية .

هدف الأديان عند ابن مسكويه :

ويرى ابن مسكويه أن الهدف الرئيسى للأديان هو بعث الأخلاق الطيبة ، وهذا لا يتم إلا بالاعتقاد بأن الدين رياضة خلقية للنفوس ، أو بالاعتقاد بأن غاية الشعائر الدينية كصلاة الجمعة والجماعة وكالصوم والحج ليس إلا غرس الفضائل الاجتماعية وأولها الحب فى نفوس الناس ، وإذا فهمنا ذلك أدركنا أن الناسك الذى يعتزل الناس ويدعى أنه يعبد الله فى خلوة ، هاربٌ من المجتمع قليل الفهم للفكر الإسلامى .

الخير قرب من الله :

ويرى ابن مسكويه أن الإنسان وهو يفعل الخير يتجه إلى الله ويقرب منه ، لأن الله هو الخير المطلق ، وكلما قوى جانب الخير فى الإنسان كلما قرب من الخير المطلق الذى هو الموجود الأعظم .

نظرية النشوء والارتقاء عند المفكرين المسلمين :

أما نظرية النشوء والارتقاء فإن مسكويه ومعاصره ابن سينا قد طورا النظرية التى قال بها قبلهما إخوان الصفا ، وجاء بعد ذلك ابن خلدون الفيلسوف المؤرخ ، والرومى الفيلسوف الشاعر ، فسارا فى نفس الطريقة ، وزادا المسألة شرحاً ودراسة .

ويمكن القول فى إيجاز ويقين إن ابن مسكويه يقرر فى نظرية النشوء والارتقاء نفس النظرية التى قررها داروين بعده بتسعة قرون ، ويوجز الشبلى فى كتابه « علم الكلام » تلك النظرية كما قال بها ابن مسكويه فيقول :

إن امتزاج العناصر الكونية أنتج مملكة الجماد ، وهى أقدم مملكة وجدت فى تاريخ الكون ، وهى كذلك أحط الممالك .

وخطا الكون خطوة إلى الأمام حيث ظهرت مملكة النبات مبتدئة بالحشائش ثم بالأعشاب فالأشجار ، وتستمر هذه المملكة قروناً وقروناً ، ثم بدت وهى فى طريقها إلى المرحلة التالية ، مرحلة الحيوان ، تقرب رويداً رويداً من المملكة الحيوانية ، فظهرت أشجار لها صفات قريبة الشبه بصفات الحيوان ، ثم جاءت فترة يبدو أنها طويلة بين مملكتى النبات والحيوان ليس من السهل أن تحسب من هذه أو تلك ، لأن بعض عناصرها كالمرجان لها خصائص من المملكتين .

وبعد هذه الفترة تُطِلُّ على الكون مملكة الحيوان ،وهى تبدأ بسيطة ساذجة حيث ظهر كائن ضئيل له قدرة على الحركة وبه شىء من الإحساس ذلك هو الديدان الصغيرة ، وقد تطور هذا الكائن رويداً رويداً حتى

ظهر الحيوان الذى لوحظ به جانب من الذكاء ، وقد مر الكون خلال ذلك بقرون وقرون .

ويستعد الكون للوصول إلى أرقى مملكة عرفها ، وهى مملكة الإنسان ، الذى يظهر ليكون قمة خلق الله سبحانه وتعالى ، الذى أكرمه الله وسخّر له أعظم مخلوقاته كما جاء ذلك فى القرآن الكريم .

وفى قصيدة للرومى المسماة المثنوى(١) وصف لهذه الأطوار التى مر بها الإنسان وهناك ترجمتها :

لقد ظهر أول إنسان على الأرض كائناً غيرَ عضوى
ثم تطور إلى نبات حيث عاش قروناً وقروناً
ولم يتذكر الإنسان وهو نبات أيامه قبل ذلك
وعَبَرَ الإنسان حقبةَ النبات متجهاً إلى مملكة الحيوان
ومرة أخرى نسى أنه عاش فترة وهو نبات
ولم يبق فى نفسه إلا بقايا قد لا يدرك كنهها
بقايا توجُّه حبِّه نحو عالم النبات
وبخاصة فى مطلع الربيع حيث تستميله الأزهار
وليس ذلك إلا كميل الطفل إلى أمه
يلتهم — دون وعْىٍ — ثديها وينال منه
وانتقل الإنسان من عالم الحيوان إلى عالم البشر
حيث الفطنة والفكر السليم والعلم والإرادة
ونسى مرة أخرى التربة التى منها انبعث
وسيتطور الإنسان مرة أخرى إلى طور جديد

ويرى الفكر الإسلامى أن التطور لم يكن انتقال الشىء من حال إلى حال ، بل إنه كان من صنع الله الذى خلق العالم على هذا النسق مرحلة إثر مرحلة.

---

(١) قصيدة طويلة فى التصوف تكلمنا عنها فيما سبق

ابن سينا

أول ما نتناوله بالبحث متصلا بابن سينا هو موضوع النشوء والارتقاء الذى تناولناه آنفاً متصلا بابن مسكويه والرومى ، ولابن سينا فى هذا الموضوع رأى قبله جميع الصوفية بما فيهم الرومى نفسه ، ولم يقل ابن سينا بمبدأ دارون الذى يقرر أن صراعاً حدث فى الكون من أجل البقاء ، وقد سلم فى هذا الصراع خلاصة استطاعت أن تتفاعل مع البيئة وتنسجم معها ، **وإنما قرر ابن سينا مبدأ الصراع من أجل التطور الذاتى والرغبة فى الوصول إلى المثالية . فكل شىء فى العالم ناقص ، ولهذا فكل شىء يعمل للكمال وتحاشى النقص ، وهذا الصراع من أجل الكمال يسمى « الحب » وهو سر التطور والنمو ، أما الكمال المقصود أو الهدف المرجو فيسمى الجمال ، والعالم كله مدفوع بقوة الحب تجاه الجمال السامى وجمال الموجود الأعظم ، وهو غاية الجمال وقمته ، ويمر الكائن — وهو فى طريقه للكمال مدفوعاً بالحب — بمراحل متعددة هى الحجرية فالنباتية فالحيوانية فالإنسانية ، وفى مرحلة قادمة من مراحل الصراع سيصل الكائن إلى درجة أسمى من درجة الإنسانية لا نستطيع الآن تحديد كنهها .**

وليست نظرية ابن سينا هذه إلا سبقاً رائعاً امتزج بطابع الخيال الشرقى للنظرية الحديثة عن الارتقاء الضرورى الذى يحدث فى الكون دائماً .

وابن سينا أعظم فيلسوف فى الإسلام ، وفلسفته مزيج من فلسفة أرسطو وآراء الأفلاطونية الحديثة ، ويعتبر كتابه « الشفاء » دائرة معارف عظيمة تشمل دراسات فى الطب والفلسفة العقلية والرياضية ، ويقع هذا المؤلف فى ثمانية عشر جزءاً ، وقد طبع فى ليدن سنة ١٨٩٢ .

وفلسفة ابن سينا العقلية تقرر أن كل شيء معتمد فى وجوده على علة فهو ممكن ، إذ لو لم توجد العلة لم يوجد الشيء ، فوجوده يصبح ضرورياً فقط مع وجود العلة ، وهذا يقودنا إلى ضرورة الاعتقاد بواجب وجود لا يحتاج إلى علة توجده ، وهو الذى يخلق العلة التى يوجد بسببها كل شيء ، وواجب الوجود هذا هو الله ، وقد تبع ابنُ سينا نهجَ الفارابى فى هذا الاتجاه ، ثم سار على هذا النهج كثيرون بعد ابن سينا وفى مقدمتهم موسى بن ميمون واسبينوزا ، وواجب الوجود منزهٌ عن الكثرة ، فهو واحد لا كثرة فى ذاته ، وتضاف إليه صفات ولكن بحيث لا تتعارض مع وحدة الذات .

وكل الموجودات كانت موجودة فى عقل الله (!!) قبل أن توجد ، وهى تصدر عنه ، فيتكون العالم كما يتجمع ماء النهر من قطرات ماء تتدافع من نافورة ، ولكل شيء لحظةٌ لوجوده ، ولكن توالى هذه اللحظات يجعل التدفق يبدو كأنه متصل .

ويصل ابن سينا إلى المنطق بأن يقرر أن الوجود إما عقلى مفارق وهو موضوع ما بعد الطبيعة ، وإما مادى محسوس وهو موضوع الطبيعة ، وإما ذهنى متصور وهو موضوع المنطق ، وموضوع ما وراء الطبيعة منزه عن المادة ، وموضوعُ الطبيعة لا يتصور بدون المادة ، وموضوع المنطق منتزع من المادة بطريق التجريد ، وهى أمور قد تخالط المادة وقد لا تخالطها كالوحدة والكثرة ، والكلى والجزئى .

وضرورة المنطق منشؤها نقص العقل الإنسانى ، وضرورة الحصول على المجهول من العلوم . وعلى هذا يلزم أن تتجه الجهود لتقوية المنطق حتى

يساعد فى الحصول على العلم الصحيح ، ويحرس الفكر من الانحراف ، وكما أن قواعد اللغة وسيلة للحصول على لغة سليمة ، فالمنطق وسيلة للحصول على فكر سليم . غير أن المنطق ليس دائماً ضرورياً ، بل هناك أناس مؤيدون بوحى إلهى يستطيعون أن يصلوا إلى المجهول بدون المنطق ، وهؤلاء هم الأنبياء ، وهم يشبهون البدو الذين لا يحتاجون للقواعد لعصمة ألسنتهم من الخطأ فى الكلام .

ورأى ابن سينا ، وهو رأى الغزالى بعده ورأى (كانت) فى العصر الحديث ، أن المقولات موضوعية وأن المعرفة مصدرها مزيج من الإحساس والمنطق .

وفى الحقيقة أن مدرسة (كانت) فى هذا تتبع رأياً شاع عند المسلمين فى القرن الثانى عشر ، ولم يقل به ابن سينا والغزالى وحدهما بل قال به أيضاً ابن الهيثم الذى زادت شهرته فى طب العيون ، والبيرونى (١٠٤٨ م) الذى اشتهر بالرياضيات والفلك والجغرافيا .

وابن سينا كعالم من علماء النفس قال بأن للمخ مكاناً محدداً ، وفى مطالع القرن العشرين كان هذا الاتجاه غير مؤكد عند الباحثين الأوربيين ، ولم يثبت لهم إلا بعد ذلك ، وابن سينا — كباحث فى الأخلاق — رأى ، مخالفاً فى ذلك أرسطو ، أن الفضائل الخلقية أسمى من الفضائل العقلية .

وسمعة ابن سينا كفيلسوف وطبيب تألقت فى الغرب عدة قرون ، وقد ترجمت أكثر كتبه إلى العبرية واللاتينية قبل نهاية القرن الثانى عشر ، وقد درس روجر بيكون كتاب «الفلسفة الشرقية» الذى وضعه ابن سينا ، ولم يصل

لنا هذا الكتاب ، وقد وضع ابن سينا تقسيماً للعلوم الفلسفية ، فأصبح هذا التقسيم مناط الدراسات الفلسفية بأوربا طوال القرون الوسطى ، وفضله الباحثون على كل ما عداه .

ولابن سينا تلاميذ من الغرب ساروا على نهجه وتأثروا به ، ومن هؤلاء الفيلسوف اليهودى ابن ميمون ، والبرت العظيم الذى عاصر القديس توماس ، وتلميذ البرت Ulrich of srasburg وقد اعتبره موسى ابن ميمون أعظم شراح أرسطو ، واعتنق القديس توماس رأى ابن سينا فى طبيعة الكون ، وكان له على العموم تأثير قوى على أكثر الفلاسفة المسيحيين واعتبره مشاهيرهم فى عداد المفكرين العالمين ، فدانتى يضعه بين أبقراط وجالينوس ، وسكاليجر (Scaliger) يرى أنه نِدٌّ لجالينوس فى الطب ومتفوق عليه فى الفلسفة ، وأكثر آراء اسبينوزا كقوله بأن الله فكرٌ وأنه عقلٌ وأنه واضعٌ عالمٌ علماً أزلياً . . . ترجع إلى ابن سينا ، وقد نقلت آراء ابن سينا إلى الفلاسفة المتأخرين فى الغرب خلال أبحاث الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون .

ابن الهيثم

٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م

ابن الهيثم فيلسوف مشهور من مدرسة أرسطو الفلسفية ، وهو كمعاصريه ابن سينا والبيرونى سبق (كانت Kant) بحوالى سبعة قرون فى تقرير النظرية التى نسبت خطأً للأخير ، وهى أن الوصول إلى الحق لا يكون إلا من آراء عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية . وابن الهيثم يوافق

أرسطو بل يمجده لأنه — فى رأى ابن الهيثم — كان أحسن من عرف كيف يربط الإحساسات ويوحِّد بينها لتصير معرفة عقلية .

ووصل ابن الهيثم كذلك إلى فكرة لم يعرفها الغرب إلا فى القرن الماضى ، وخلاصتها أن الإدراك يتركب من الإحساس ، ومن مقارنة الإحساس الناشىء حديثاً ، بالصورة المرسومة بالذاكرة عن الإحساسات السابقة المماثلة . ثم الحكم بمطابقة الإحساس الجديد للصورة الذهنية سالفة الذكر .

ابتكارات تتصل بالسينما والأفلام :

وفيما يتصل بعلم النفس فقد اكتشف ابن الهيثم قانوناً عظيم الأهمية وهو أن الأحاسيس التى يتلو بعضها بعضاً ، فى تتابع منتظم تكوِّن إحساساً متصلا ، وعندما أعيد اكتشاف هذا القانون فى العصر الحديث أمكن ابتكار السينما لأن الفيلم ليس إلا صوراً متتابعة تخدع الرائى فتبدو صورة واحدة . ولو أن الطريقة الكيماوية الخاصة بالتحميض وجدت فى العهود الماضية لأمكن للعصور الوسطى أن تشاهد الأفلام السينمائية .

ابن باجه

٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م

يتضح من اتجاهات الفارابى وابن سينا أن دراستهما الفلسفية بها ميول صوفية ، أما ابن ماجه فإنه مع كونه من مريدى الفارابى لم يتجه إلى التصوف فى دراسة الفلسفة ، بل على العكس من ذلك ثار ثورة عارمة ضد التصوف

والمتصوفين وأعلن أن التصوف بما فيه من صور حسية يحجب الحقيقة أكثر مما يكشفها ، وأن ما قاله الصوفية من أن الحقيقة تأتى للإنسان عن طريق نور يقذفه الله فى القلب . وأنها تكسب الإنسان السعادة . كلُّ هذا وهم يلزم طرحه ، والطريق الصحيح لمعرفة الحقيقة هو النظر الفلسفى الذى لا تشوبه لذه حسية .

وأعلن ابن باجة أن من الصعب على الفيلسوف أن يرتفع بدراساته وتفكيره أو يعلن نتائج أبحاثه فى مجتمع جاهل بالفلسفة متعصب تعصباً أعمى فى أمور الدين ، ولذلك يقترح ما يسمى بالمفكر الموحد ، وهو أن تعيش طائفة صغيرة من المفكرين وحدهم . كأنهم دولة داخل الدولة ، فكأنهم نموذج للجماعة كما يجب أن تكون ، وفى رأيه أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى قمة المعرفة بالتقدم الطبيعى الذى يبدأ بالتجارب الحسية ويصل إلى الفكر العقلى ، ويتحدث ابن باجه عن نفس الفرد ، ونفس الإنسانية ، ونفس الفرد عنده يمكن أن تخلد بناء على توافر خصال لها ، أما عقل الإنسانية كلها فأزلى بسبب اتحاده بالعقل الفعال وهو الله .

والموجودات عند ابن باجه قسمان : متحرك وغير متحرك ، والمتحرك تصدر حركته عن موجود أزلى هو العقل ، والجسم لا يستطيع الحياة بغير روح ولكن الروح تستطيع الحياة بغير الجسم ، ولهذا فإن الروح تعيش بعد سقوط الجسم ودفنه ، وتُتيَسَّر سبل المعرفة للروح الطليقة التى تخلصت من ماديات الجسم ، وهؤلاء الذين يقنعون بالمظاهر الحسية سيبتلعهم الفناء كما أن هذه المظاهر الحسية نفسها ستفنى ، أما الذين يهتمون بالأمور العقلية ويسيطر عليهم العقل فى تصرفاتهم فإنهم سيصلون إلى المعرفة الحقة وسيكسبون الخلود ،

والنفس الفردية فانية ، لكن الروح وهى الجزء العاقل من النفس أزلى لأنه عام ، والذين يطورون أرواحهم يستطيعون الوصول للخلود ، وهؤلاء الذين يَتصلون للمعرفة بالفكر الخالص يصلون إلى الحقيقة التى هى الله ، وهم لا يصلون فقط إلى الله وإنما يتحدون به .

وفلسفة ابن باجه كانت معروفة للباحثين الأوربيين وبخاصة البرت ماجنوس والقديس توماس الأكوينى .

ابن طفيل

٥٨١ هـ = ١١٨٥ م

ابن طفيل فيلسوف طبقت شهرته الآفاق مرتبطة بكتابه الرائع « حى ابن يقظان » الذى يمثل قصة خيالية فلسفية يرمى إلى إثبات أن الإنسان يستطيع أن يعرف الله ويتصل به ويفنى فيه بدون وحى وبدون معلم ، وقد تَرجم إدوارد بيكون هذه القصة الرائعة إلى اللغة اللاتينية ونشرت مع نصها العربى فى أكسفورد سنة ١٦٧١ م ثم ترجمت بعد ذلك إلى أكثر اللغات الأوربية . ويقول Prul Brcnnle عنها ما يلى : « . . . وفى وقت قصير جذبت هذه القصة شعور الجماهير ، وكانت كعاصفة أحس بها الناس جميعاً ، وظلت مدة طويلة فى مكانة مرموقة » .

ولم يتوقف بعد اهتمام الناس بها فى مختلف الأقطار فقد ترجمت فى القرن الحالى إلى اللغة الروسية سنة ١٩٢٠ وإلى اللغة الأسبانية سنة ١٩٣٤ م .

ولم يكتف الأروبيون بترجمتها بل ظهر من كتابهم من عمل على تقليدها ؛ فمن المعروف أن George Keith ترجمها إلى الإنجليزية سنة

١٦٧٤ م ثم ترجمها إلى الإنجليزية أيضاً George Ashwell سنة ١٦٨٦ م ثم Simon Ockley سنة ١٧٠٨ م ، وبعد هذه الترجمة بحوالى إحدى عشرة سنة أخرج Daniel Defoe قصة « Robinson Crusoe ومن الواضح لدى كل الباحثين أن دانيال مدينٌ للفيلسوف المسلم ابن طفيل ، فإن عناصر « حى بن يقظان » تظهر بوضوح فى رواية دانيال .

وقد كان ابن طفيل وزيراً للخليفة أبى يعقوب يوسف أشهر خلفاء الموحدين كما كان كبير أطبائه ، وقد زكى الوزير للخليفة معاصره ابن رشد آخر الفلاسفة الأعلام الذين ازدانت بهم أسبانيا ، ولا شك أن ابن رشد كان أشهر معلم تلقى الأوربيون عنه الفكر وتتلمذوا لأفكاره عدة قرون ، وقد آن لنا أن نتحدث عنه .

ابن رشد

٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م

ابن رشد والدليل على وجود الله :

ابن رشد أعظم الفلاسفة المسلمين الذين انتهجوا نهج أرسطو وارتضوا مدرسته(١) ، وهو أكثر الفلاسفة المسلمين تأثيراً فى الفكر الأوربى ،

---

(١) حاول ابن رشد كما حاول كثير من الفلاسفة المسلمين أن يوفقوا بين الفكر الإسلامى وفلسفة اليونان، ولكن محاولة ابن رشد كانت ترمى إلى هذا التوفيق على حساب الأفكار اليونانية ، أى محاولة إخضاع آراء أرسطو إلى التفكير الإسلامى .

ويعتمد ابن رشد فى التدليل على وجود الله على الإحساس الذى تجيش به نفس الإنسان ، فهو يرى أن فى النفس حباً لله وشوقاً إليه ، وليس ذلك إلا دليلا نظرياً على وجود الله ، ولو لم يكن هناك إله ما اشتاقت كل النفوس إليه ولما هتفت به من حين لآخر ، وتطلعت إليه فى الملمات .

ويوافق ابن رشد أرسطو فى دليل الحركة ، فيرى أن هذا العالم يتحرك حركة أبدية دائمة ، ولابد أن هناك محركاً يحركه ولا يتحرك ، وهذا المحرك الأول هو الله ، ولا يوافق ابن رشد أرسطو فى قوله بأبدية حركة الأفلاك ، بل يرى ابن رشد أن الأفلاك وحركتها مخلوقة لله .

ومن الأدلة التى أوردها ابن رشد دليل العناية الإلهية ، وخلاصة هذا الدليل أن نظام الكون يدل دلالة واضحة على تناسق دقيق بين أجزائه ، وأن هذا التناسق مفيد للإنسان ، ولا يمكن أن يكون هذا التناسق قد حدث جزافاً ، بل من قوة حكيمة نظمته وخلقته وتشرف عليه .

ولم يقبل ابن رشد الدليل الذى ساقه الفارابى وابن سينا على وجود الله وقالا فيه إن العالم جائز الحدوث وكان من الممكن أن يوجد على نحو مغاير لما هو عليه الآن ، وأن الذى جعله على ما هو عليه واجب الوجود . وقال ابن رشد إن هذا الدليل لا يقوى على النقد العلمى ، إذ أن الحكمة اقتضت أن يوجد العالم على ما هو عليه .

ولابن رشد مجموعة من الأفكار عارضها المتكلمون فى الشرق والغرب معارضة شديدة ولكنها نالت تأييداً واسعاً وحماسة قوية من أحرار المفكرين فيما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر ، وكانت دعامة قوية من الدعامات التى قام عليها صرح النهضة الأوربية ، وهذه الأفكار هى :

١ — التفسير المجازى للقرآن الكريم .

٢ — نظرية الحقيقتين التى يقول ماكدونالد عنها إنها انتشرت بسرعة بين مفكرى أوروبا كما تنتشر النار فى الهشيم .

٣ — القول بعقل هيولانى أزلى لا يعتريه الفناء وعقل جزئى حادث يفنى بفناء الإنســـان .

٤ — الحكم بأبدية الهيولى .

٥ — تحرير المرأة وإظهار حقوقها .

وسنتكلم بإيجاز عن كل من هذه الأفكار (١) :

١ — فيما يتعلق بالتفسير المجازى للقرآن اتجه ابن رشد وجهه ابن باجه وابن طفيل فقرر أن ما فى الكتاب المقدس حق ، وأن عموم الناس يلزم أن يؤمنوا به على ما يحمل ظاهره ، وأن يتخذوا منه دليلهم على وجود الله كما ورد فى آياته ، أما الفلاسفة فدليلهم على معرفة الله كل ما هو موجود ، وهم يستنبطون المجهول من المعلوم ، ويستعملون القياس والعقل والمنطق لمعرفة الله ، وذلك لا يضاد الشرع بل يساعده على الوصول للحق ، وإذا أدى النظر العقلى إلى ما يخالف ظاهر الشريعة كان للفلاسفة أن يؤولوا الشريعة وآيات القرآن ، فهم يفهمون مرامى القرآن ، ويدركون كنهه ، وليس للفلاسفة أن يقولوا للعامة من التأويل ما لا يستطيع هؤلاء فهمه وإدراكه .

---

(١) ترجمنا الفقرات التالية ببعض التصرف زيادة فى الإيضاح ، واعتمدنا على كتابى ابن رشد (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) و (الكشف عن مناهج الأدلة) :

ويذكر ابن رشد أنه يلزم أن يحث العلماء العامة على إتباع تعاليم الدين بأسلوب مادى هو التخويف بالعقاب أو الوعد بالثواب ، أما طبقة الحكماء فتقدم لهم الأسباب ومسبباتها ويطلب منهم عمل الخير لأنه خير ، والابتعاد عن الشر لأنه شر ، لا رغبة فى ثواب ولا رهبة من عقاب .

٢ — والقضية السابقة دفعت ابن رشد إلى الفكرة الثانية أى إلى نظرية الحقيقتين أى إلى أن الدين شىء والفلسفة شىء آخر ، فأبحاث كلٍّ تختلف عن أبحاث الآخر ، ولكل وسيلته فى التعبير عن الحقيقة العامة والتدليل عليها ، وابن رشد مع تعظيمه للدين يرى أنه أحكام شرعية وليس مذاهب فلسفية ، ويعتقد أن فى الشرع أدلة على الحقيقة العظمى تكفى الرجل العادى ، ولكن للفيلسوف أدلته ونظرياته التى تقنعه وتخفى فى الوقت نفسه على غير الفيلسوف . ولهذا يرى من الأجدر بنا أن نعزل الدين عن الفلسفة ويوافق على أن شيئاً قد يكون صحيحاً شرعاً وغير صحيح عقلا وكذلك العكس ، فعالم الفلسفة يبنى على العلم ، وعالم الشريعة يبنى على الإقناع (١) .

٣ — وليمكن فهم مذهب ابن رشد فى مسألة العقل الهيولانى والعقل الفردى يلزم أن نعود إلى مذهب أرسطو ليتضح لنا الموضوع ، ففى مناقشة طبيعية الروح نرى اتجاه أرسطو غامضاً ، فهو يفرق بين العقل القابل والعقل الفعال ، فالأول يبدأ مع الجسم ويفنى بفنائه ، أما الثانى فأساس مقدس يأتى للإنسان

---

(١) قلنا فيما سبق إن هذا الرأى عارضه المتكلمون واعتبروه انحرافاً من ابن رشد وقد دافع كثير من الباحثين المحدثين عن ابن رشد وشرحوا اتجاهه بما لا يخالف التفكير الإسلامى العام . (انظر ابن رشد الفيلسوف المفترى عليه للأستاذ الدكتور محمود قاسم .)

من الخارج ، وقد يطلق عليه العقل الهيولانى ، ويعرف بأنه جوهر أزلى لا يعتريه الفناء ، له وجود مستقل فى عالم المعقولات بخلاف العقل المنفعل وهو قدرة الإنسان على المعرفة العقلية فإنه يولد مع الشخص ويفنى بفنائه ، وهناك صلة بين العقلين فى نفس الإنسان ، وليست هذه الصلة متساوية بين جميع الناس بل تتفاوت بمقدار استعداد النفس ليدفع لها العقل الفعال الصور التى يدركها العقل القابل أو الفردى أو الجزئى ومن هنا يبدو التفاوت فيما نسميه الذكاء .

وابن رشد متأثر بهذا التفكير الأرسطاليسى إلى حد كبير وإن استعمل له طريقاً آخر ، فهو يرى أن العقل القابل أو عقل الإنسان ليس إلا جزءاً من العقل الفعال اتخذ مكانه بصفة مؤقتة فى جسم الإنسان ، أما العقل الفعال فهو العقل العام للجنس البشرى ، وهذا العقل ليس شخصاً ، وهو غاية وهدف أزلى عام ، يشبه المشعل الذى ينير الطريق للنفس البشرية لتصل للحقيقة المقدسة ، وبواسطة هذا العقل ينال الفرد إشعاعه وإدراكه ، والصلة أو الاتحاد بين العقل العام والعقل الفردى (أو الروح العامة والروح الفردية) تتم تبعاً لمقدرة العقل الفردى .

وبموت الإنسان يفنى العقل الفردى (أو النفس الفردية) لأن هذا العقل قابل للموت ، أما العقل العام فأزلى خالد كما سبق ، والناس يموتون كأشخاص ولكنهم يخلدون بنسلهم وعقائدهم ففيهم جانب من خلود العقل العام .

٤ — وفيما يتعلق بأصل الأشياء يرى ابن رشد رأياً يخالف به أتباع الأفلاطونية الحديثة ، فهو يرى أن الكون لم يكن فراغاً بحتاً ، بل مادة أزلية تحوى بذور كل العالم ، فخَلْقُ العالم لم يكن إيجاداً من لا شىء ، بل كان

تحويلا من الاحتمالية إلى الواقعية ، أو من القوة إلى الفعل ، وهذا التحويل يشمل المادة والصورة ، لأن الصورة والمادة (الهيولى) مرتبطتان ولا يمكن انفصال إحداهما عن الأخرى ، والصورة كلها من أدناها إلى أعلاها أى إلى الذات الإلهية تؤلف سلسلة من الصور متفاوته الدرجات ، وفى قمتها الصورة الإلهية التى هى صورة المحرك الأعظم ، وعلى هذا فعملية الخلق ليس فيها إيجاد شيء لم يكن موجوداً ، وإنما هى أن يظهر بالفعل ما كان موجوداً بالقوة .

٥ — وفى الحياة الاجتماعية ينصف ابن رشد المرأة ويدافع عن حقوقها ويبين مكانتها ، ويشرح أن المرأة تعامل كأنها نبات أو حيوان أليف يمتلكه الرجل لمتعته الخاصة ، ويبين أن هذا خطأ كبير ، شارحاً أن المرأة كالرجل فى المواهب والقيمة الإنسانية ، وأنها وإن اختلفت عنه فإنها تختلف فى الدرجة فيفوقها الرجل أحياناً وتفوقه أحياناً . ويتساءل ابن رشد : ألاتؤدى أنثى الكلاب دورها كالذكر فى حراسة قطعان الماشية ؟ فكيف لا تستطيع المرأة أن تؤدى دورها بجانب الرجل فى خدمة الإنسانية ؟ .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الفلسفة :

وقد اتخذت الأفكار الفلسفية وبخاصة أفكار ابن رشد طريقها إلى الأوربيين ، فنظرية ابن رشد عن الحقيقتين ، ورأيه فى أزلية الهيولى كانتا المشعل الذى سار فى ضوئه العلماء الأوربيون ، وأفكار ابن رشد عن المرأة ظلت تسير فى أوربا رويداً رويداً حتى صرخ بها Dubais فى فرنسا و Oekham فى انجلترا بعد ابن رشد بحوالى قرنين .

وقد سبق أن ذكرنا أن الفضل يرجع لليهود والمسيحيين فى ترجمة علوم الهند والأغريق للمسلمين ، ونضيف هنا أن اليهود والمسيحيين قاموا مرة أخرى بحركة الترجمة من الفكر الإسلامى إلى اللغات الأوربية ، ومن الواضح أن اليهود والمسيحيين استمتعوا فى ظل الحكم الإسلامى بالتسامح الدينى الذى لم تعرفه الأديان من قبل ، وقد فتحت لهم أبواب الكليات والجامعات ، وكانوا يجيدون اللغة العربية ويلبسون الزى الذى يلبسه المسلمون ، وقد أتيح لهم فى أثناء هذه الدراسة — بجانب الفائدة الفكرية — أن يتعرفوا على أخلاق المسلمين وأن يتحلوا بها .

الثقافة الإسلامية فى البلاط المسيحى بشمالى أسبانيا :

ولما خضعت أسبانيا لحكم الموحدين المغاربة بدأ نفوذ الفقهاء يظهر فى سيرة بعض ملوكهم ، وممن عرف بعدائه للفلسفة وتبعيته للفقهاء المتعصبين أبو يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤ — ١١٩٩ م) وكان مما فعله أبو يوسف — ليرضى الفقهاء — أن نفى من الأندلس أكثر المشتغلين بالفلسفة وخاصة من المسيحيين واليهود ، كما أبعد ابن رشد عن بلاطه وعاصمته . فرحل الفلاسفة والعلماء اليهود والمسيحيون إلى الممالك المجاورة فدخلوا الجزء الشمالى المسيحى بأسبانيا ، كما دخلوا فرنسا ، وهنا وهناك نشروا الثقافة الإسلامية التى رحلوا بها ، وممن احتفى بهم حفاوة ظاهرة الملك الفونس السادس الذى كان قد التحق بنفسه بمعاهد المسلمين من قبل ، وارتوى من معينها ، وعشق ثقافتها ، وسار فردريك الثالث والفونس الحكيم سيرة الفونس السادس فى تشجيع العلم والترجمة .

اليهود وآراء الفلاسفة المسلمين :

وحدثت بعد ذلك فاجعة دفعت الثقافة الإسلامية إلى أقطار أوربية أخرى ، وذلك أن اليهود كانوا هم عماد الترجمة من العربية إلى العبرية

واللاتينية ، ولكن أوربا لم تكن تعرف التسامح الديني ، فسرعان ما ظهر تعصب المسيحيين ضد اليهود ، وزاد في ذلك التعصب ثراء اليهود الذى أثار ثائرة التجار ، ثم اتباع اليهود لمذهب ابن رشد وذلك ما لا يرضى الكنيسة المحافظة ، وكانت النتيجة أن قامت عدة مذابح ضد اليهود ، سقط فيها كثيرون منهم ، وفر آخرون من هذا العسف إلى مناطق أخرى بأوربا حيث واصلوا نشر الثقافة الإسلامية وبخاصة مبادىء ابن رشد في بقاع مختلفة ، ومن الأسر اليهودية التى اشتهرت بترجمة الفكر الإسلامى أسرة Tidponides التى اتخذت Lunel مركزاً لنشاطها العلمي وأخذت على عاتقها ترجمة مؤلفات ابن رشد وشروحه إلى العبرية واللاتينية ، وليست مؤلفات بعض أفراد هذه الأسرة إلا تكراراً أو إبرازاً لآراء ابن رشد وتعاليمه ، وهذه الحقيقة تبرز في كتاب The Openiom of Philosophers (أفكار الفلاسفة) الذى كتبه صمويل بن تبون وكتاب The Search fot Wisdom (البحث عن الحكمة) الذى كتبه جودا بن سليمان وكتاب Gate Haaven (باب السماء) الذى كتبه جيرسون بن سليمان .

ولم يكن اليهود تلاميذ ابن رشد فقط ، بل كان منهم من اتخذ ابن سينا رائداً له كموسى بن ميمون ومن سار على نهج الغزالى مثل Hel Mevi

الرحالة وفلسفة المسلمين :

وأسهم غير اليهود في خدمة الفكر الإسلامى ونقله إلى الفكر الأوربى وكان ممن حمل نصيباً في ذلك الرحالة والتجار الذين أخذوا معهم صوراً من هذه الثقافة وبخاصة اتجاهات ابن رشد إلى فرنسا وإيطاليا وأواسط أوربا .

وسائل متعددة لنشر الفلسفة الإسلامية بالغرب :

وفى Toledo أنشأ البطريرك ريموند (١١٣٠ — ١١٥٠ م) كلية للدراسات اللاهوتية ، وكان من أهم ما يدرس بهذه الكلية كتب الفلسفة

والعلم التى كتبها المسلمون ، وبخاصة شروح المسلمين على كتب أرسطو وخلاصة ما كتبه الفارابى وابن رشد ، وقد ترجمت هذه إلى اللاتينية .

ومما هو جدير بالذكر أن اللغة العربية بقيت لغة البلاط فى Toledo مدة قرنين بعد أن استولى عليها الفونس السادس سنة ١٠٨٥ م ، وظلت العملة فى هذه المملكة تحمل الحروف العربية فترة طويلة .

وحوالى نهاية القرن الثانى عشر كانت فلسفة ابن رشد هى الفلسفة السائدة بأوروبا ، وكان إقبال الناس عليها شديداً ، وكانت طابع الدراسة لكلية الآداب بباريس ، وقد أزعج هذا الإقبال السلطات الدينية ، فأصدرت قرارات متعددة بتحريم دراسة أفكار أرسطو وأفكار ابن رشد بالجامعات الأوربية ، كما صدرت قرارات تضاد اتجاهات ابن رشد ، وقررات أخرى ضد من حملوا لواء الرشدية (مذهب ابن رشد) ولكن كل هذه القرارات لم تُجْدِ ، ولم تستطع أية قوة أن تقف فى وجهها فاتخذت طريقها إلى الذيوع والانتشار .

وفى سنة ١٢١٥ م أصبح فردريك الثانى إمبراطوراً لروما ، وقد سبق أن التحق هذا الامبراطور بجامعة بالرمو وتلقى علومه على يد المعلمين العرب ، كما اتصل اتصالا وثيقاً بالمسلمين فى صقلية وفى سوريا (خلال الحروب الصليبية) وكان من نتيجة ذلك أن أصبح من المعجبين بثقافة المسلمين وبخاصة بأفكار ابن رشد ، وفى سنة ١٢٢٤ م شيد هذا الامبراطور جامعة فى نابلى ، وكان الهدف الأساسى له أن ينشر بين الأوربيين فلسفة المسلمين وعلومهم بواسطة هذه الجامعة ، وفى هذه الجامعة تلقى القديس توماس علومه ، وقد

استخدمت هذه الجامعة كثيرين من الباحثين اليهود والمسيحيين للترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية ، وكانت مؤلفات أرسطو التى تحمل شروح ابن رشد ومؤلفات ابن رشد نفسه من أهم ما حفل به منهاج هذه الجامعة ، كما قامت هذه الجامعة بإرسال ترجمات هذه المؤلفات إلى جامعتى باريس وبولونيا .

ويقول الدكتور فيليب حتى فى إظهار تأثير الفلسفة الإسلامية بوجه عام وفلسفة ابن رشد بوجه خاص على الفكر الأوربى : « ومع أن الغرب اعتمد فى أكثر الأحيان على ترجمة لاتينية منقولة عن العبرانية ، وكانت هذه بدورها منقولة عن شرح عربى على ترجمة عربية منقولة عن السريانية وهذه عن اليونانية ، فإن عقول فلاسفة النصارى قد تأثرت بأرسطو وابن رشد أكثر مما تأثرت بأى مؤلف آخر . وظلت فلسفة ابن رشد مسيطرة على عالم الفكر من أواخر القرن الثانى عشر حتى آخر القرن السادس عشر ، وذلك برغم المعارضة التى واجهها أولا من أهل السنة فى أسبانيا ، وثانياً من أهل التلمود ، وثالثاً من الأكليروس المسيحى ، وليس من شك فى أن ابن رشد كان من دعاة تحكيم العقل فى جميع الأمور إلا عقائد الإيمان المنزلة ، ولم يكن — كما ادعى كثيرون — أباً لحرية الفكر والإلحاد وعدوا للدين والإيمان .

وقد عمد رجال الكهنوت إلى كتاباته فنفوا منها بعض المواد غير المرغوب فيها من وجهة نظرهم ، ثم جعلوها كتباً للتدريس فى الجامعات والمعاهد العالية بأوربا .

وما إن جاء القرن السادس عشر حتى صارت فلسفة ابن رشد كما يقول Renan الفلسفة الرسمية التى تدين بها الطبقات المتعلمة بإيطاليا، ومن الواضح — على هذا — أن أفكار ابن رشد ظلت صاحبة النفوذ على الفكر الأوربى طيلة أربعة قرون ووضعت الأساس للنهضة الأوربية ، ويرى Coulton أن نفوذ نظريات ابن رشد يشبه نفوذ نظرية داروين فى العهد الحاضر ، ولكن عناصر المقارنة الصحيحة تستلزم أن تعيش نظرية داروين تلك القرون التى عاشتها أفكار ابن رشد .

تأثير الجامعات الإسلامية على جامعات أوربا : (*)

ذكرنا فيما سبق تأثير النواحى العلمية والفلسفية فى العالم الإسلامى على التفكير الأوربى ، ونريد هنا أن نذكر أن أوربا عندما أنشأت الجامعات استفادت استفادة كبيرة بالجامعات الإسلامية التى كانت قد سبقتها بعدة قرون ، فقد أنشىء الأزهر فى القرن العاشر الميلادى وأنشئت المدارس النظامية فى القرن الحادى عشر ، ثم ابتدأت أوربا فى إنشاء الجامعات فى القرن الثالث عشر أى بعد عصر النهضة الذى استفاد من علوم الشرق ونهضته .

وعندما أنشئت الجامعات الغربية اقتبست الكثير من النظم الإسلامية التى كانت متبعة فى جامعات الشرق، كالزى الجامعى، ونقابة المعلمين، وحلقات التعليم، والأروقة أو النظم الداخلية للطلاب ، والأوقاف على التعليم ، ونظام المعيدين ، ويقول الفريد جيوم: « إن طبيعة الدراسة المنظمة ، والعلاقة بين الأستاذ وتلميذه ، والهبات المالية التى عاشت عليها الجامعات ، وشتى نواحى

(*) هذا الموضوع من إضافات المترجم .

النشاط فى الحياة الجامعية ، كانت بدون شك متشابهة فى الشرق والغرب»(١).

واستمرارا مع ذلك يرى بروفسور جيوم أن كلمة « بكالوريا أو أو « بكالوريوس » التى كانت شهادة ضرورية لمن يشغل وظيفة معيد ، ليست إلا تحريفا للكلمة العربية « حق الرواية » الذى كان مساعد الأستاذ يستغله بناء على تقرير أستاذه(٢) .

ومما يؤكد الصلة بين الجامعات الغربية والجامعات الإسلامية أن الجامعات الغربية نشأت فى أحضان الكنيسة ، فكل الجامعات فى البلاد الغربية نشأت فى مدارس أسقفية ، وحصلت على قوانين قيامها من الهيئات البابوية ، وهذا يتضح تماما بالنسبة لجامعة كمبردج بانجلترا التى ترتفع المشاهد الكنسية فى جامعاتها والتى تسمى بعض كلياتها بأسماء دينية مثل « Trinity College »

وليس هذا إلا لأن الأزهر وهو أول جامعة إسلامية كبرى نشأ فى أحضان الدين ومرتبطا بمسجد هو مسجد الأزهر الذى أنشأه جوهر الصقلى ثم جعله المعز لدين الله جامعة لكل جوانب العلوم .

---

(1) The Legacy of Islam p. S36

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٨ .

التقدم في مجال الحياة العملية (*)

بالإضافة إلى نشاط المسلمين في الميادين العلمية والفلسفية كان للمسلمين نشاط كبير في الميادين العملية، وقد أشار مؤلف هذا الكتاب إشارات سريعة إلى هذا النشاط في التقديم للباب الأول ، وقد رأيت أن أشرح هذا النشاط بما يجعله واضحاً للقارىء .

الـزراعة :

اتسعت الدولة الإسلامية إتساعاً كبيراً في وقت قصير ، وإذا كانت أكثر الجزيرة العربية — كما قال القرآن الكريم — أرضا غير ذات زرع ، ولا تجرى بها أنهار ، فإن المناطق الواسعة التى دخلها الإسلام ابتداء من العقد الثانى الهجرى كانت مناطق خصبة للغاية تتدفق فيها الأنهار الواسعة كنهر دجلة والفرات والنيل ،وأنهار إيران وأنهار الأندلس ، ومن هنا فقد اتجه المسلمون إلى رعاية الزراعة التى كانت تمثل أهم جانب من جوانب الاقتصاد في الدولة ، ومما يروى عن هارون الرشيد أنه استلقى مرة على ظهره ، فرأى سحابة تمر في السماء فناجاها قائلا : اذهبى حيث شئت فسيأتينى خراجك . وهذا يدلنا على اهتمام الدولة بالحاصلات الزراعية التى تكوّن جزءاً مهماً من ميزانية الدولة .

ومن المعروف أن المسلمين تركوا الأرض لزارعيها في الأقطار التى فتحوها بناء على اجتهاد عمر بن الخطاب الذى ارتضاه المسلمون(١) .

(*) هذه الموضوعات من إضافات المترجم .

(١) انظر كتابنا الاقتصاد في الفكر الإسلامى .

أما الأراضى التى هاجر أصحابها أو قتلوا ، فقد أصبحت ملكاً للدولة يزرعها الزارعون ويؤدون عنها الخراج .

لهذا ولاهتمام الإسلام بالعدالة اتجهت الدولة الإسلامية للاهتمام الواسع لرعاية الأنهار والآبار كما اتجهت لحفظ الأمن حتى يزرع الزراع وهم آمنون على أنفسهم وثرواتهم ، وقد أثر عن على بن أبى طالب نصحه للولاة بأن يهتموا بتيسير أمر الزراع والعدالة معهم ، وإن ذلك هو الطريق السليم للحصول على الخراج دون عناء .

لكل هذا كانت العناية بالأنهار عناية شاملة ، كما اتجه المسلمون لحفر القنوات التى تجلب الماء من الأنهار إلى الأماكن النائية ، واهتموا كذلك بعمل السدود .

ومع تقدم الطب اتجهت الدولة والزراع إلى العناية بالنباتات الطبية التى كان يستخرج منها العقاقير ، والتى كانت أثمانها مرتفعة .

ومثل هذا يقال بالنسبة للزهور والرياض التى اتجه لها الزراع عندما كثرت العناية بالقصور لتُزَيَّن بها أرجاء تلك القصور .

وهكذا كانت العناية بالحبوب والبساتين وأشجار الفاكهة ونباتات العقاقير ، وحدائق الأزهار كلها موضع اهتمام بالغ جعل المسلمين يهتمون اهتماماً كبيراً بالزراعة ، وفى كثير من الحالات أصبحت الدورة الزراعية ثلاثية ، كما اهتم المسلمون بوسائل تسميد الأرض وزيادة خصوبتها حتى تنتج أكبر قدر ممكن من هذه الحاصلات .

وعرف المسلمون أنواع التربة فى المناطق المختلفة بحيث درسوا

ما يلائم كل تربة من أنواع الحاصلات وكان اهتمامهم شديداً بالنباتات التى لا تحتاج إلى كثير من المياه . فوجهوها إلى الأرض التى لا تتدفق فيها الأنهار أو التى تعتمد على هطول الأمطار .

ويذكر الدكتور أحمد عيسى فى كتابه « تاريخ النبات عند العرب » أن العرب قاموا بتطوير الزراعة وتحسين النباتات وعملوا على تعدد المحاصيل فى العام الواحد ، ودرسوا مختلف الحشائش والتسجيرات والأشجار والبذور والثمار وقارنوا بينها ، وعرفوا طرق إكثارها ، كما عرفوا نباتات الزينة ، واهتموا بالنباتات الطبية . وينقل عن الدكتور « ماير هوف » قوله : إن كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية الذى وضعه ابن البيطار يعد أعظم كتاب ظهر فى علم النبات فى حينه ، وقد ترجم إلى اللاتينية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات العالمية ، واعتمد عليه العلماء الأوربيون وأخذوا منه شيئاً كثيرا .

التجـــارة :

كان للمسلمين عناية كبرى بالتجارة الداخلية والخارجية ويتجه أكثر المفكرين إلى أن البحر الأبيض كان واسطة التقاء تجارى بين المسلمين وأوربا أكثر من كونه حاجزاً بين الجهتين وكانت الموانى الإسلامية فى فى سوريا ومصر والشمال الإفريقى على صلة بالموانى بجنوب إيطاليا وفرنسا وبخاصة جنوه والبندقية وبروفانس ، كما كانت هناك تجارة مع شمال أوربا وصلت إلى فنلندا والسويد والنرويج ، وقد عثر على نقود عربية يرجع تاريخها إلى العصر العباسى فى الدول المذكورة .

وكان هناك نشاط تجارى بين العالم الإسلامى وبين الشرق الأقصى ، وكان هذا النشاط يتخذ طريق البر فى شمال سوريا والعراق وإيران إلى الهند والصين أو يتخذ طريق البحر بواسطة البحر الأحمر والخليج العربى إلى الهند فالصين ، وكانت الأخشاب والفيلة والتوابل أهم ما يستورد ، كما كان النسيج والحبوب من أهم ما يصدر لهذه البلاد .

وكانت هناك تجارة واسعة بين العالم الإسلامى وبين قلب إفريقية وكان الذهب والأبنوس والعاج تستورد من هذه المناطق عن طريق زيلع وعدن فى مقابل النسيج والملابس وبعض الصناعات الدقيقة التى كانت تصدر لهذه المناطق .

وبالإضافة إلى التجارة الخارجية كانت هناك تجارة داخلية بين الأقطار المختلفة التى شملتها الأمة الإسلامية ومن الواضح أن الإنتاج كان يختلف من منطقة إلى أخرى وكان التبادل التجارى يسد حاجة المحتاج عن طريق سوق تجارية نشطة بين قطر وقطر فى العالم الإسلامى ، وكان من دواعى هذا النجاح التجارى ، تلك الطرقُ الممهدة والمسالك المنتظمة التى كانت تمثل شبكة واسعة تربط جوانب الأمة الإسلامية ، وعلى طول هذه المسالك كانت توجد الآبار والمخازن ومنازل الاستراحة والحراسة التى كانت تهيىء لنشاط متصل :

وكان المسلمون يملكون أسطولا تجارياً تجرى سفنه لتربط العالم الإسلامى بالأقطار غير الإسلامية فى الشمال والجنوب والشرق ، أو تربط منطقة إسلامية بأخرى فى العالم الإسلامى الفسيح .

الفنون والصناعات :

كانت هناك صناعات كثيرة فى البلاد الإسلامية قبل أن يدخلها الإسلام وقد ورد فى تقديم هذا الكتاب نماذج لهذه الصناعات التى كانت تنسب إلى البلاد التى كانت تقوم بها .

ثم ظهرت فنون وصناعات منذ مطلع الإسلام ، وكانت غالبا مرتبطة بمظاهر إسلامية ، ومن المعروف أن المسلمين بكروا ببناء المساجد ، وقد اشترك الرسول صلوات الله عليه بنفسه فى بناء مسجد المدينة ، وكان المسجد فى أول الإسلام بسيطاً يتجه فقط لأداء مهمته فى العبادة والاجتماعات والقضاء والتعليم ، وانتشرت المساجد بعد ذلك فى المدينة المنورة ، وفى النواحى التى دخلها الإسلام بالجزيرة العربية فى حياة الرسول .

وبدأ الإسلام ينتشر خارج الجزيرة العربية عقب وفاة الرسول ، وأسست المدن الإسلامية فى البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها ، وكان المسجد دائما يعتبر مركزا للمدينة الإسلامية ، ولم يعد المسجد فى هذه البلاد بسيطا كما كانت المساجد من قبل ، وإنما تأثرت المساجد بالحركات العمرانية الواسعة والضخمة التى عرفتها هذه البلاد ، ويكفى أن نشير إلى أن المسجد الأموى بدمشق كان يعتبر إحدى عجائب الدنيا .

وفى هذه المساجد ظهرت صور من العمارة والزخارف والفنون الرائعة كالأعمدة والعقود والزخارف الهندسية واتخذت آيات القرآن الكريم وسيلة تحمل — بجانب معناها — روعة فى أدائها وكتابتها .

وكما كان المسجد مركزا من مراكز الفنون فى الإسلام فقد اتجه المسلمون

كذلك إلى المصحف الشريف ليتّخذوا منه وسيلة لإبراز الفنون الإسلامية كذلك، فقد أبدع المسلمون فى كتابة المصحف الشريف، واتخذوا فى ذلك خطوطاً مختلفة وألوانا متعددة، كما أحاطوا صفحات المصحف بإطار من الفن الجميل، وتفننوا كذلك فى غلاف المصحف وفى الصندوق الذى يوضع فيه المصحف، فأصبحت هذه كلها نماذج راقية من الفنون الجميلة.

والخط العربى كذلك أصبح وسيلة من الوسائل الفنية، ومع أن العرب لم يعرفوا الكتابة كثيراً إلا بعد ظهور الإسلام، فإنهم مع الإسلام ومع تقدم العالم الإسلامى بذلوا جهداً كبيراً فى تحسين الخط العربى وتلوينه، فأصبح منه خط النسخ وخط الرقعة والثلث والفارسى والديوانى وغيرها من الخطوط التى أصبحت نماذج رائعة فى الفن والزخرفة.

وابتداء من العهد الأموى بدأت قصور الخلفاء والأمراء تحاكى قصور السابقين، وكانت قصور العباسيين قمة فى الروعة والأناقة، وفى هذه القصور هنا وهناك ظهرت صور من الفنون والزخارف والعقود، والتذهيب والتذويق.

والتحق بالقصور، القلاعُ والخانقاه والروابط ثم المدارس والبيمارستانات، فكانت كلها نماذج ممتازة من العمارة الإسلامية حفلت بالمآذن والقباب والعقود والمحاريب.

الصناعات الجلدية وصناعات النسيج :

وقد ارتبط بالمصحف الشريف تطور الصناعات الجلدية وذلك بإعداد جلود للمصاحف، وصناديق لها من الجلد الذى كان يعد إعداداً زخرفيا رائعاً.

وارتبط بالقصور صناعة النسيج والطرز ، وقد عرف العالم الإسلامى فى عصور رُقيِّه صوراً من الأزياء كان كل منها يناسب طائفة معينة من طوائف الشعب ، فكان هناك زى للخلفاء وآخر للأمراء وثالث للعلماء وهكذا.

وفى العصر الفاطمى كان هناك بيت للطراز يصنع الملابس المختلفة الموشاة بالخيوط المتعددة الألوان وكان الخلفاء الفاطميون يقدمون هذه الملابس هدايا لأصحاب الوظائف الذين يعينهم الخلفاء فيها .

وكانت مصر تعتبر بوجه عام مركزاً مهماً من مراكز صناعة النسيج ، وكانت دمياط والإسكندرية والفيوم والبهنسة مراكز مختلفة لصناعة النسيج من القطن والكتان والحرير ، وترجع شهرة مصر فى هذا المجال إلى العصور الإسلامية الأولى ، ويذكر التاريخ أن الولاة المصريين كانوا يرسلون إلى الخلافة العباسية كثيراً من المنسوجات النفيسة ضمن الأموال المقررة أو الهدايا التى كانوا يبعثون بها إلى الخلفاء ، وفى متحف برلين قطعة من النسيج المصرى باسم الخليفة المعتمد على الله مؤرخة سنة ٢٧٨ هـ ، وقطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى والأمير هارون بن خمارويه مؤرخة سنة ٢٩١ هـ ، كما وصلتنا مجموعة من قطع النسيج من الصوف والكتان صنعت فى إقليم الفيوم وتنسب إلى القرن الرابع الهجرى ، ويُزَخْرَف كثير من هذه القطع برسوم تتألف عادة من أشرطة تشتمل على زخارف وصور حيوانات وطيور وآدميين بالإضافة إلى أشرطة من الكتابة العربية الزخرفية ، وفى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة نماذج من هذا اللون .

وهناك نماذج مماثلة مما صنع فى العراق والأندلس وإيران(١) .

وكل هذه الأنشطة العملية وجدت طريقها إلى أوربا ، فاتجهت جهود الأوربيين إلى محاكاتها لرفع شأن الشعوب التى كانت قبل الإسلام غارقة فى الحروب والصراع .

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ١٧٤ — ١٧٥

خاتمة

رأينا فيما سبق أن الفكر الإسلامى حقق تقدما رائعاً خلال الفترة الواقعة بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر ، ورأينا كيف تلقى الفكر الإسلامى ما دونه الباحثون السابقون من دراسات وكيف طورها المسلمون وزادوا عليها ، كما رأينا ما ابتكره المسلمون من أبحاث علمية وفلسفية ، وأوجزنا القول فيما حققوه من تقدم فى مجال الحياة العلمية ، وأخيراً شاهدنا هذه النتائج يقدمها المسلمون زاداً ناضجاً لأوربا ، فكان هذا الزاد أساساً شيدت عليه النهضة الأوربية .

ضعف الفكر الإسلامى وأسبابه :

ولكن الفكر الإسلامى انحدر بعد القرن الثالث عشر ، فكان فى خلال الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ضعيفا هزيلا ، وذلك للأسباب التالية :

أولا : المبالغة التى أدخلها الغزالى فى الشرق الإسلامى ، وابن رشد فى الغرب الإسلامى على الفلسفة الإسلامية ، فأما الأول فقد اتجه بالفلسفة الإسلامية إلى الجانب الروحانى حتى انماعت فى سحب التصوف ، وأما الثانى فاتجه اتجاهاً مضاداً لاتجاه الغزالى فاتجه بها إلى هوة المادة ، ونجح الغزالى فى الشرق فأصبحت آراؤه تمثل أهم مدرسة به ، ونجح ابن رشد فى الغرب حتى صارت أفكاره أهم رائد للفكر الغربى ، وعلى هذا اتسعت الهوة بين الشرق والغرب وأهمل كل منهما اتجاه الجانب الآخر مما عاد بالخسارة على الجانبين . والحقيقة أن الجانب الروحانى لا يستطيع أن يتناسى العقل والمنطق ، وأن الجانب المادى لا يمكن أن يهمل الاتجاهات الروحانية فى هذه المباحث فكلا الاتجاهين يكمل الآخر ، وإهمال أحدهما يعود بالخسارة على التفكير الفلسفى ، ولا مناص من العناية بالجانبين إن أريد للفكر الإسلامى أن ينتعش مرة أخرى .

ثانياً : أهمل خلفاء المسلمين وأمراؤهم فى هذه الفترة رعاية العلم والثقافة ، ومن الواضح أن العلم إن عُدّ ترفا بالنسبة للفرد فهو ضرورى بالنسبة للدولة ، وقد كان الخلفاء والأمراء الأول يدركون هذه الحقيقة فشجعوا العلم وراعَوْا أهله حتى رأينا كبار المفكرين يعيشون فى كنف الخلفاء والسلاطين فى بحبوحة من العيش ومستوى رفيع من النفوذ ، فالرازى تقلب فى نعيم الأمراء والقصور وبخاصة فى قصور السامانيين، ونَعِمَ ابن سينا برعاية علاء الدولة بأصبهان ، وكان ابن مسكويه صديقا للسلطان عضد الدولة وخازناً لأمواله ، وكان ابن طفيل وزيراً لأبى يعقوب يوسف ، وابن باجة وزيراً للسلطان على حاكم سرقوسة ، وكان ابن رشد طبيباً لبلاط أبى يعقوب يوسف ، وابن خلدون كان واسع الجاه وسفيراً لدى كثيرين من أمراء عصره ، ثم جاءت عهود الضعف والانحلال، فلم يعد العلماء ينعمون برعاية أو تشجيع مما سبب ضعف الثقافة وانحلالها .

ثالثاً : مُنِيَ العالم الإسلامى بكثير من الثورات السياسية الداخلية وألوان من الهجوم من الخارج ، وخلال هذه وتلك جرت مذابح للسكان ، ودمرت مدن ، وأحرقت مكتبات ، وأقفلت كليات وجامعات ، وبعض هذه الحركات انتهى باستعباد السكان وبالتالى باستعباد العقول ، فحرية الفكر لا تعيش فى أجواء العبودية ، ولا ينشط العقل ما دام الجسم مكبلا مغلوبا على أمره . وفى هذه الغيوم والسحب انحدر الصوفية إلى حياة الدراويش ، وانحدر الشعب إلى عبادة الأولياء وتقديس الأضرحة . وانحل العالم الإسلامى إلى دويلات وانحلت الدويلات إلى قبائل وبطون وطبقات ، وانتقل مشعل التفكير من المسلمين إلى المسيحيين الذين ساروا فى طريقهم ينتفعون بما نالوه من ثمار الفكر الإسلامى ، ولما انتقل النشاط العلمى والفلسفى إلى أوربا تبعه النشاط الصناعى والتجارى ، وبالتالى انتقل الرخاء من الشرق إلى الغرب .

على أن الفكر الإسلامى لم يمت فى الشرق ، بل ظل ضعيفاً مستوراً يتحين الفرص للنشاط والظهور ، وقد أتيحت له صحوات من حين إلى آخر على يد بعض المفكرين المسلمين أمثال الكاتبى والحلى والأصفهانى وصدر الدين الشيرازى وعبد الكريم جيلى والجرجانى والتفتازانى وجلال الدين الدوانى وملة سابزوارى وطاش كبرى زاده وحسن بهارى وشاه ولى الله وفصل الحق الخير بادى وغيرهم ، على أن عبد الكريم يعد فى القمة بين هؤلاء ، فهو وحده الذى وصل إلى مستوى المفكرين المسلمين فى عصور النهضة الإسلامية .

عصور الظلام :

ذلك حال الضعف الذى أصاب العالم الإسلامى فى المدة من القرن الثالث عشر إلى السادس عشر ، أما القرون الثلاثة التالية أى القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر فتُعَدُّ عصر ظلام بالنسبة للعالم الإسلامى فقد امتد الاحتلال الأوربى والتركى ، وكان التدهور الثقافى على نفس مستوى التدهور السياسى .

مطالع النهضة الإسلامية :

وقبيل نهاية القرن التاسع عشر بدأت نهضة فكرية قادها المصلح جمال الدين الأفغانى الذى اتخذ من مصر مركزاً لنشاطه وأسس مدرسة فكرية لم يتوقف نشاطها حتى الآن ، وفى الهند قام السيد أحمد خان بحركة مماثلة ، وقد فتحت هذه الحركات الباب للنهضة الإسلامية التى سارت بقوة وفى ميادين مختلفة ثقافية واجتماعية وسياسية ، وامتدت إلى أكثر بلدان العالم الإسلامى أو جميعها ، وظهر فى هذه الأثناء الشاعر الهندى الفيلسوف محمد إقبال ، وإقبال عنى بالدراسات الإسلامية وبالفلسفة ، ونادى كذلك بنهضة عقلية

شاملة ، وأبان أن الدين والفلسفة والعلم دعامات ضرورية لبناء النهضة الإنسانية ، وأُسُسٌ هامة لتحقيق السعادة للإنسان،ولا تصل أمة إلى الرقى المنشود بدون العناية بهذه الدراسات جميعا .

آمال فى المستقبل :

والأمل معقود على النهضة الحديثة التى تشع فى ربوع العالم الإسلامى ، ونرجو أن يلحق المسلمون بركب الثقافة الذى فاتهم ، بل أن يستعيدوا القيادة التى كانت فى أيديهم حينا طويلا من الزمن . والتى شملت نواحى الحياة المختلفة من ثقافة إلى فلسفة ودين ونظم اجتماعية وأخلاقية .

وإذا كان المسلمون قد تأخروا فى الأخذ بأسباب هذه النهضة ، فإن التفاؤل يجعلنا نرى أنهم لم يبدءوا نهضتهم الحديثة بعد فوات الأوان ، وأن فرص العمل لا تزال وسيلة النجاح للأقوياء منهم والمجاهدين الأكفاء .

ISLAMIC
INSTITUTIONS AND CIVILIZATION

2

MUSLIM THOUGHT

its Origin and Achievements

BY

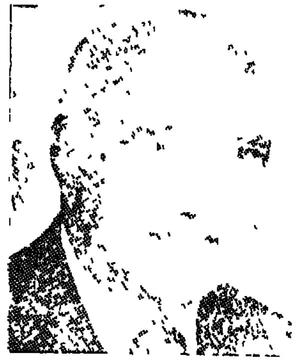
M. M. SHARIF

BY
AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor
of Islamic History and Civilization
aculty of Dar El Ulum, Cairo University

Eighth Edition (1986)

Published by :
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمـــد شلبى

— تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج .

— زار الولايات المتحده الأمريكية كما زار أكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا ، ومثل مصر فى عدة مؤتمرات دوليه .

— درس مجموعة من اللغـــات الأجنبيه ويجيد الانجليزيه والاندونيسية .

— اشتغل بالتدريس بجامعه القاهره حتى وصل الى درجه أستـــاذ ورئيس قســـم التاريخ الاســـلامى والحضارة الاسلامية — وقـــد حاضر — منتدبا وزائرا ومعارا — فى جامعة الأزهـــر ، وعين شمس ، واندونيســـيا ، والســـودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية السعوديه ، وليبيا ، وفى معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحـــوث والدراسات العربيه ، ومعهد الدراسات الدبلوماسية .

— مؤلفاته — غير المكتبة الاسلامية — تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الثامنة عشرة من بعضها ، وأهم هذه المؤلفات :

١ — موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة أجزاء .

٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء .

٣ — مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء .

٤ — كيف تكتب بحثا أو رسالة .

٥ — المكتبة الاســـلامية لكل الأعمـــار : ١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ، للأولاد والشبان والسيدات والرجال .

٦ — ISLAM : Belief Legislation Morals

٧ — History of Muslim Education

— كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الاوردية والتركية ، والاندونيسية والماليزية والفرنسية والفارسية .